تأليف الدكتور

عبد الباسط محمد أبين سليمان

أخصائي بحوث إسلامية بمجمع البحوث الإسلامية

القاهرة


قدم له

أ.د/ محمد إبراهيم الفيومي

عضو مجمع اللغة العربية ومجمع البحوث الإسلامية

السنة التاسعة والثلاثون - الكتاب السابع عشر - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م





المسلمون والآخر

حوار تفاهم وتبادل حضاري

تأليف الدكتور

عبد الباسط محمد أمين سليمان

أخصائي بحوث إسلامية بمجمع البحوث الإسلامية

القاهرة

قدم له

أ.د/ محمد إبراهيم الفيومي

عضو مجمع اللغة العربية ومجمع البحوث الإسلامية

السنة التاسعة والثلاثون - الكتاب السابع عشر - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الأزهر الشريف

سلسلة البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سليمان ، عبد الباسط محمد أمين
المسلمون والآخر : حوار تفاهم وتبادل حضارى
تأليف عبد الباسط محمد أمين سليمان ؛ قدم له محمد إبراهيم الفيومى . ـ (القاهرة : مجمع البحوث الإسلامية ، ٢٠٠٨) . ص ؛ . سم . ـ (سلسلة البحوث الإسلامية ؛ الكتاب السابع عشر)
١ـ االإسلام والديانات الأخرى ٢١٤,٢
أ ـ العنوان ـ شارع عبد الله محمد عبد الله بجوار مصنع تاكى للإسفنج ـ البعوث الإسلامية .

رقم الإيداع ١٧٥٨٨ / ٢٠٠٨م

تقديم

المسلمون والآخر، تعبير معاصر طرحه الإعلام، واهتمت بشرحه الدوائر الثقافية العربية والإسلامية، واختلفت حوله الرؤى والمناهج وفق أبعاد الكاتب الثقافية، فهناك من فسر الآخر بالغير، والغير أبعد مفهومًا وأوسع معنى من الآخر، فالغير كل ما ليس بمسلم، بينما الآخر يشترك مع الغير فى اشتماله على كل ما هو خارج عن المسلمين، وينفرد ـ عرفا ثقافيا ـ على الغرب الأمريكى، أو العولمة أيديولوجية القطب الشارد عن المنظومة الدولية ـ راعى الإرهاب العالمى.

فصنف منهج الكاتبين إلى منهجين:

منهج الذى فسر الآخر بالغير فحصر كتابته حول المسيحيين وأهل الذمة، وبعض العلاقات الدولية التى حرص الإسلام عليها وهذا من حق الباحث، وليس من حقه أن يقف عندها؛ لأنه لم يخرج عن أوراق المسائل المقررة سلفا، فعزل نفسه وعزل قارئه عن معالجة القضايا التى تلح عليها فى الصحافة والإعلام وهو التشويه المنظم الغربى للإسلام والمسلمين والعرب ... فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

والثانى: هم الذين فسروا الآخر بالغرب وعولمة القطب الشارد،

وهذا المنهج الثانى فيه نمط حصر ثقافته فى ترديد قضايا تاريخية وما انفك .تلك هى قضايا الاستشراق عنها فهو مازال يعيش فى تاريخها ، وفيه النمط الواعى الفقيه بقضايا عصره ، معنيٌّ بمتابعتها ثقافيا وسياسيا ، وقدم أبحاثه على مستوى رفيع مؤرخا ومحللا وموازنًا .

وأسهمت أبحاثهم فى إبراز دور الإسلام فى حوار الحضارات ، وحوارات الإسلام قامت على أسس محكمة وثابتة وفى إطار مترابط في التكامل وأن ما يطفو على السطح الثقافى من مقولات مثل :

الأولى : تفاعل الحضارات بين عدوين غير متكافئين .

الثانية : حوار بين نظامين بينهما أكثر من إرث مشترك وأحدهما يكمل الآخر .

الثالثة : غياب دراسة ظاهرة فاعلية الجالية الإسلامية ورفضهم ذوبان قيمهم فى هذه المجتمعات عن المنظرين والمحللين .

إنها ادعاءات تحتاج إلى كتابات جادة .

وعلى هذه المناهج انقسم الكاتبون حول دراستها طرائق قددًا ، ومؤلف الكتاب الذى بين أيدينا ـ الدكتور / عبد الباسط محمد أمين سليمان من الباحثين النجباء فى مجمع البحوث الإسلامية ـ اختار منهجه وسار عليه ، ولم يقصر فيما قصد إليه ، وهو كتاب الساعة ،

وإن شئت قلت كتاب العصر، ولقد وُفِقَ الكاتب فى إختياره الموضوع والعنوان، وما عالجه من قضايا فى أسلوب أدبى رصين، فهو عالم أديب نتمنى له مستقبلاً علمياً يفوق طموحه.

وبالله التوفيق

أ.د. محمد إبراهيم الفيومى

عضو بمجمع اللغة العربية

ومجمع البحوث الإسلامية

مقدمة

إن الحمد لله نحمده سبحانه ونستعين به ونستغفره ونتوب إليه ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، فإنه من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له من بعده ـ سبحانه ـ ونصلى ونسلم على خير الأنام وسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ـ ﷺ ـ، الذى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يغيب عنها إلا هالك ولا يتبعها إلا كل منيب سالك.

ثم أما بعد...

إن الإسلام الآن يتعرض لحملة شديدة لتشويه صورته فى أعين الآخرين، حتى لا يدخلوا فيه، ففى الآونة الأخيرة ازداد انتشار الإسلام عن طريق قوة الدفع الذاتية فيه بسماحته وعقيدته وشريعته، ولكى يوقف أعداء الإسلام هذا الانتشار قاموا بحملة تشويهية شرسة للإسلام والمسلمين فى جميع وسائل إعلامهم وفى كتبهم ومؤلفاتهم التى تتعرض للإسلام ومما يثيرونه فى هذا الشأن: أن الإسلام دين السيف، وما انتشر الإسلام إلا بالسيف وسفك الدماء، وأن المسلمين إرهابيون وقتلة وأن الحضارة الإسلامية تتصادم مع باقى الحضارات.. إلخ.

وكل هذه الأمور وغيرها افتراء على الإسلام والمسلمين، فما كان الإسلام فى يوم من الأيام يجبر أحدا على الدخول فيه أو يحبذ القتال وسفك الدماء لغير ضرورة ، وما كان المسلمون فى يوم من الأيام إرهابيين أو قتلة لغيرهم دون وجه حق، وما كانت الحضارة الإسلامية لتتصادم مع غيرها وهى التى بعثت وأحيت موات الحضارات الأخرى كلها وأعطته لغيرها .ولكى نرد على مزاعم هؤلاء وافتراءاتهم، ولكى يتضح موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى، كان هذا البحث وقد تناولنا فيه :العلاقة بين المسلم وغير المسلم فى حالتى السلم والحرب .

وحوار المسلمين مع الآخر، والتبادل الثقافى والحضارى الذى تم بين المسلمين والآخر .

وذلك كله من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة المسلمين وتاريخهم .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د / عبد الباسط محمد أمين سليمان

القاهرة ـ مجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٤ م .

الفصل الأول
العلاقة
بين المسلم وغير المسلم
كما جاء
في
القرآن والسنة

الفصل الأول

العلاقة بين المسلم وغير المسلم كما جاءت في القرآن والسنة

المبحث الأول

العلاقة بين المسلم وغير المسلم في حالة السلم

الإسلام يحترم جميع الأديان السماوية السابقة حتى إنه جعل من عناصر الإيمان:

الإيمان بجميع الرسل السابقين وبجميع كتبهم السماوية التي أنزلها الله - تعالى - عليهم قال - تعالى -:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة ٢٨٥).

ومن حديث جبريل الذى فى الصحيحين: [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره](١).

ومادام المسلم مأمورا بالإيمان بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية السابقة، فيترتب على ذلك ألا يكون لديه أى كراهية لأى دين آخر أو أى حقد أو كراهية لأحد من أتباع الأديان الأخرى.

---

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٠.

فالإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه قال ـ تعالى ـ:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

فالدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالته تقوم على العرض والتوجيه والنصح والإرشاد دون ما قهر أو إجبار قال ـ تعالى ـ:

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران ٢٠)

والإسلام دين يتعايش مع جميع الأديان فى أمن وسلام من منطلق قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

(الكافرون).

فالأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم هو السلم، حتى يكون الاعتداء من غيرهم فتكون الحرب الفاصلة التى يقتضيها الدفاع عن النفس[1].

(١) انظر العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص (١٦) للشيخ محمد أبو زهرة، وهو بحث ألقى بجامعة أم درمان الإسلامية بالندوة العلمية لأسبوع القرآن .=

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (النساء ٩٠).

فالإسلام مع أهل الكتاب وغيرهم يسلك طريق السلم إذا كانوا مسالمين له ولم يعتدوا على حريات المسلمين أو يهاجموهم ولم يكونوا حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية وتبليغها للناس.

فقد أمر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين أن يدخلوا فى السلم كافة فقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة ٢٠٨).

= * الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١١ وما بعدها للأستاذ الدكتور/ عبد الغفار هلال، وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية [هذا هو الإسلام] ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

* الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص٨ وما بعدها للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم، وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية [هذا هو الإسلام] ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

وجعل شعار دينه السلام المطلق فقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (النساء ٩٤).

وعند أول طلب للسلام يجب على المسلم أن يلبى ذلك الطلب قال ـ تعالى ـ: ﴿ * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾

(الأنفال ٦١).

فموقف الإسلام من غير المسلمين فى حال السلم موقف الأمان والبر والمودة ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وكانوا لهم مسالمين فإذا قاتلوا المسلمين فلا أمان ولا بر ولا مودة قال ـ تعالى ـ:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة ٨، ٩).

فموادعة المسلمين لغيرهم واجبة وضرورية فى حالتين:

إحداهما: تكون فى الأشهر الحرم وهى واجبة بنص القرآن الكريم فيجب على المسلمين أن يقوموا بها من تلقاء أنفسهم بحكم الإسلام

إلا إذا اضطروا إلى القتال من قبل أعدائهم . قال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة ٣٦) .

وهذه الأشهر مذكورة في القرآن بالعدد وفي السنة بالتعيين ، كما جاء في خطبة الوداع ، إذ قال النبي ـ ﷺ ـ [أيها الناس ، إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد][1] .

والثانية :تكون واجبة في حال إذا ما طلبها الأعداء تمهيدا للصلح فإنهم يجابون إليها كما فعل النبي ـ ﷺ ـ مع قريش في صلح الحديبية[2] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير .باب قوله :(إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله . . .) .

(٢) انظر :العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص٤٣ ـ ٤٦ للشيخ محمد أبو زهرة .

إن دار الإسلام هى دار أمن لمن يعيش على أرضها ، فقد قرر الإسلام حماية أهل الذمة المستأمنين ما داموا فى دار الإسلام ، فقد روى البخارى فى (باب إثم من قتل ذميا بغير جرم) عن عبد الله ابن عمرو عن النبى - ﷺ - قال : [من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما] .

وقد أورد ابن حجر العسقلانى فى شرحه لهذا الحديث عدة روايات أخرى للبيهقي ولأبي داود وللنسائي وللترمذى ولأحمد بن حنبل والدار قطني وللطبراني وكلها روايات تؤكد على جرم من فعل ذلك ، والمعاهد عند ابن حجر المراد به . .من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم . .[1] .

وعن تبويب البخارى لباب (لا يقتل المسلم بالكافر) يقول ابن حجر العسقلانى : «للإشارة إلى أن المسلم إذا كان لا يقتل بالكافر فليس له قتل كل كافر بل يحرم عليه قتل الذمي والمعاهد بغير استحقاق»

وينقل ابن حجر عن الأحناف أنهم قالوا بقتل المسلم بالذمى إذا قتله بغير استحقاق»[2] .

فقد حرم الإسلام الاعتداء على المعاهدين والمستأمنين بغير وجه حق سواء كانوا فى ديارهم أو جاءوا إلينا أو كانوا يسكنون معنا

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٢ ص ٢١٨ .المطبعة البهية المصرية لصاحبها عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر .

(٢) انظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج١٢ ص ٢١٩ .

وجعل جزاء من يفعل ذلك أن يحرم من رائحة الجنة. والذى ينظم علاقات المسلمين مع غيرهم فى حالة السلم والحرب هى العهود والمواثيق التى يبرمها المسلمون مع غيرهم، والعهد واجب الوفاء سواء كان بين الآحاد أو فى معاملة المسلمين لغيرهم من الدول فقد قال - تعالى -:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة ٤).

وقد أمر القرآن فى كثير من نصوصه بالوفاء بالعهد، والقرآن إذ يدعو فى كثير من نصوصه عامة إلى الوفاء بالعهود بين الآحاد والأمم، ويخص العهود التى تكون بين الأمم بنص خاص كالنص الذى ذكرنا آنفا. والنبى ﷺ قد حث فى أحاديث كثيرة على الوفاء بالعهود عامة وعلى الوفاء بالعهود التى تعقد مع رؤساء الأمم فقد كان يقول - ﷺ -: [خيار عباد الله عند الله يوم القيامة الموفون المطيبون]. مسند الإمام أحمد حديث رقم [٢٥١٠٨] كتاب باقى مسند الأنصار.

وكان يقول - ﷺ -: [أنا أكرم من وفى بعهده] [(١)].

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن (٨٥/ ٣٠)، ومتقى الدين الهندى فى كنز العمال (١٠٩٢٠) بلفظ: (أنا أكرم من وفى بذمته).

وقد كان ـ ﷺ ـ قد عقد عهدا مع المشركين على ألا يقاتلوهم ثم ذكر له أنهم على نية أن يقاتلوا فقال ـ ﷺ ـ: [وفوا لهم ونستعين الله عليهم] (١) .

وكان يعتبر ـ ﷺ ـ أشد أنواع الغدر غدر أمير عامة ، فكان يقول ـ ﷺ ـ: [لا غادر أعظم غدرا من أمير عامة] . (صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير) .

«فالأحاديث النبوية صريحة في الوفاء بكل عهد ، وعمل النبى ـ ﷺ ـ صريح فى أن المعاهدات كانت تنظيما للسلم ، وليست لحال وقتية ، أبرمت فيها المواثيق اضطرارًا ، لا اختيارا ، والآيات القرآنية صريحة فى أمرين فى أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم من الناس هو السلم وأن المعاهدات واجبة الوفاء سواء أكانت إنهاء لحرب قائمة أم كانت تنظيما لسلم دائم» (٢) .

فالقرآن صريح فى أن على المسلمين أن يسالموا من سالموهم فقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (النساء ٩٤) .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى (١٢ / ١٤٤) بلفظ : (نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم) .
والحاكم فى المستدرك (٣ / ٢٠٢) بلفظ : (نستعين الله عليهم ونفى بعهدهم) .
(٢) العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٤٩ للشيخ محمد أبو زهرة .

وخص الأمر بالقتال لمن يقاتلنا دون من لم يقاتلنا فقال ـ تعالى ـ:
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠).

وإذا كانت هذه الآية صريحة فى أن من لا يقاتل لا نقاتله، ومن سالم المسلمين كان عليهم أن يسالموه، فعلى ذلك تكون المواثيق والعهود الخاصة بالصلح الغرض منها تنظيم السلم وتنظيم العلاقة الدولية، لا أنها تنقض بمجرد انتهاء الحال الوقتية، وتدل الآية على أنه يجوز عقد صلح دائم لتوثيق السلم الدائم، وكل عقد دائم إذا عرض ما أخل بالالتزام فيه فإنه ينقض فورا ويكون زواله للإخلال بشروطه لا لأن صفة الدوام لا تكون فى عقود الصلح وإذا علم أن الأصل هو السلم فيكون الصلح الذى أساسه السلم مقررا كما هو ثابت، للاستيثاق من بقاء السلم لا لإنشائه[1].

وعمل النبى ـ ﷺ ـ يؤيد ذلك تماما فعندما جاء إلى المدينة مهاجرا وجد بجواره فيها أقواما من اليهود والمشركين من الأوس والخزرج فما أزعجهم عن مكانهم، بل عقد معهم عقد جوار دائم اشترط عليهم فيه شروطا والتزم هو بمثلها وأساسها حسن الجوار وتنظيم العلاقات الاقتصادية بينه وبينهم وقد جاء فى هذا الميثاق ما نصه:

« . . وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا

---

(١) العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٥٠، ٥١.

ظن ظُلم وإثم لا يوثغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وبني الشطنة مثل ما ليهود بني عوف، وأن بطانة يهود كأنفسهم .. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم ..وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .. وأن نصر الله على من اتقى بين أهل هذه الصحيفة وأبر، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، فإنهم يصالحون، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم وأن الله جار لمن بر واتقى»[1]. فهذه المعاهدة الحرة كانت لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم ولم تدفع إليها حاجة المسلمين ولم يلاحظ فيها إلا مصلحة السلم العام وهى من مصلحة المسلمين[2].

ولقد تغير الغرض من إبرام المعاهدات بين المسلمين وغيرهم فى عهد الصحابة، فقد اشتدت الحرب بين الروم والمسلمين، وبين الفرس والمسلمين فلم تكن المعاهدات التى أبرمها المسلمون مع الروم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢٤. دار الفكر العربى - الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.

(٢) انظر: العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٥٢.

أو مع الفرس لتنظيم السلم لأن الحرب كانت قائمة على قدم وساق، بل كانت المعاهدات نتيجة لأحد أمرين: إما لأن المسلمين هموا أن يدخلوا فى البلاد فعقدوا مع أهلها عهودا التزم بها المسلمون أن يقيم أولئك تحت ظل المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإما أن يعاهد المسلمون الملوك على أن يتركوهم مهادنين موادعين لهم ويكون ذلك لحال وقتية لأن الحروب مستمرة[1].

وعلى كل حال فقد أمر الإسلام باحترام العهود والمواثيق سواء كانت دائمة أو وقتية وألا تنقض من جانب المسلمين، فنقضها دائما يجب أن يكون من غيرهم، والقارئ لتاريخ المسلمين يجد أن نقض العهد دائماً كان يقع من غيرهم على مر العصور.

لقد أقام الإسلام المساواة بين المسلمين وغير المسلمين فى القضاء وسائر المعاملات.

ففى مجال القضاء سجل التاريخ أمثلة حية لعدل المسلمين مع غيرهم، فعندما شكا رجل من اليهود على بن أبى طالب للخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال عمر لعلى: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، فقام على وجلس بجواره ولكن بدت على وجهه علامة التأثر، وبعد أن انتهى الفصل فى القضية قال لعلى: أكرهت يا على أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء،

(١) انظر السابق ص٥٢.

قال : لا ولكنى تألمت ، لأنك ناديتنى بكنيتى فلم تسو بيننا ، ففى الكنية تعظيم ، فخشيت أن يظن اليهود أن العدل ضاع بين المسلمين[1] .

ومما يدل على المساواة بين المسلمين وغيرهم فى القضاء وعلى انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغيرهم ، هذه الواقعة التى وقعت بين الإمام علىٍّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وبين رجل من أهل الكتاب ، وذلك عندما فقد الإمام علىٌّ درعه ، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابى ، فجاء به إلى القاضى شريح قائلا : إنها درعى ، ولم أبع ، ولم أهب . فسأل القاضى شريح الرجل الكتابى قائلا : ـ

ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟

فقال الرجل : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ، فالتفت القاضى شريح إلى الإمام علىٍّ ـ رضى الله عنه ـ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال : أصاب شريح ما لى بينة ، فقضى بالدرع للرجل ، وأخذها ومشى ، وأمير المؤمنين ينظر إليه ، إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . أمير المؤمنين يدنينى إلى قاضيه فيقضى عليه ؟ ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، انبعث الجيش

---

(١) الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١٠ . أ.د / أحمد عمر هاشم .

وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق، فقال الإمام علي - رضي الله عنه -: أما إذ أسلمت فهي لك[1].

وكما راعى الإسلام السماحة والمساواة بين المسلمين وغيرهم في مجال القضاء، راعى السماحة أيضا في معاملات المسلمين مع غيرهم:

ففي معاملة البيع والشراء بين المسلم وغير المسلم اتفق الفقهاء على جواز البيع والشراء بين المسلم وغير المسلم وصرحوا بعدم اشتراط الإسلام في البائع أو المشترى ولا تبطل عندهم إلا البيوع التي تبطل بين المسلمين كبيع الخمر والخنزير والميتة والأصنام والتعامل بالربا .. إلخ، واتفقوا على جواز بيع مثل هذه الأمور والتعاملات بين غير المسلمين لاعتقادهم حله[2].

وذهب الفقهاء من الأحناف والحنابلة والمالكية إلى جواز الشراكة بين المسلم وغير المسلم ما لم تكن في شيء محرم كالخمر والخنزير وغيره وأن يكون البيع في يد المسلم مخافة الوقوع في الربا[3].

وذهب جمهور الفقهاء إلى القول بإباحة الإجارة في المباحات بين المسلم وغير المسلم[4].

---

(١) الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١١ . أ.د.أحمد عمر هاشم.

(٢) انظر: علاقة المسلم بغير المسلم في العقود ص ٥٠ - ٩٩ .رسالة دكتوراة بجامعة الأزهر - كلية الشريعة والقانون بالقاهرة - إعداد / السيد طلبة السيد - تحت إشراف أ.د / الشافعي عبد الرحمن السيد عوض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

(٣) انظر السابق ص ١٠٧ - ١١٠ .

(٤) انظر السابق ص ١١٧ - ١٢٢ .

واتفق جمهور الفقهاء على أن الوكالة بين المسلم وغير المسلم مباحة، فيصح للمسلم ولغير المسلم توكيل كل منهما فى أى عقد من عقود المعاوضات أو التبرعات لأنها من الأمور الدنيوية التى يستوى فيها المسلم وغير المسلم ولحاجة الناس إليها[1] .

واتفق جمهور الفقهاء على جواز هبة غير المسلم للمسلم وكذا هبة المسلم لغير المسلم[2] .

واتفق جمهور الفقهاء على جواز العارية بين المسلم وغير المسلم[3] .

واتفق جمهور الفقهاء على جواز القرض بين المسلم وغير المسلم[4] .

واتفق جمهور الفقهاء على جواز التصدق على غير المسلم[5] .

ويخطو الإسلام خطوة أخرى مع أهل الكتاب تتعدى مجرد التعامل السطحى ليزيد الارتباط والصلات بين المسلمين وغيرهم ممن يعيشون فى ديار المسلمين أو ممن يرتبطون معهم بالعهود والمواثيق وهم فى ديار أخرى ومن ذلك أن جعل الإسلام طعام أهل الكتاب حلالا للمسلمين يصح لهم كما يصح لأهل الكتاب أن يأكلوا من

(١) انظر السابق ص ٢٠٦ .
(٢) انظر علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود ص ٢٢٩ . رسالة دكتوراة بجامعة الأزهر.
(٣) انظر علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود ص ٢٧٠ وما بعدها.
(٤) انظر السابق ص ٢٧٦ وما بعدها.
(٥) انظر السابق ص ٢٩١ .

طعام المسلمين، فيتبادلون المطاعم والمشارب فى صورة اجتماعية تدعوهم إلى التآلف معهم والتزاور والمجالسة ونمو العلاقات الاجتماعية[1].

ولكى يزداد التواصل والتقارب بين المسلمين وأهل الكتاب شرع الإسلام الزواج بالمرأة الكتابية[2].

ولا توجد رابطة فى الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك قال ـ تعالى ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة ٥).

وهذا التسامح الإسلامى لا نظير له فى الديانات الأخرى بل فى الدين الواحد فالمسيحى الكاثوليكى لا يتزوج بالمرأة الأرثوذكسية أو غيرها من المعتنقات للمذاهب المسيحية المختلفة والذى يفعل ذلك من الزواج بغير من هى معتقدة اعتقاده يعد خارجاً على التعاليم المرعية فى مذهبه. فأين هذا من سماحة الإسلام وربطه بين أهله وأهل الأديان الأخرى طعاما ونكاحا؟[3].

---

(١) الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١٥ أ.د/ عبد الغفار هلال.

(٢) انظر: علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود ص ١٧٤ ـ ١٨٣.

(٣) الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١٥ أ.د/ عبد الغفار هلال.

* الإسلام والرد على منتقديه ص ١٠٩، ١١٠ للإمام محمد عبده ـ مطبعة التوفيق الأدبية ١٣٤٣هـ.

إن المشاركة الاجتماعية بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى تجد فى الإسلام ملاذا لها فالإسلام لا يمنع أن تقوم علاقات العمل والتعاون في المجالات المتعددة بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة وليس فى القرآن نصوص تحض على تحريم قيام التواصل في العمل بين المسلمين والآخرين، ولا يوجد ما يمنع من أن يعمل المسلم لدى أحد من أهل الكتاب روى الطبرانى عن كعب بن عجرة أنه اشتغل عند يهودى فسقى له إبله كل دلو بتمرة وأخبر النبى ﷺ ـ بذلك فما أنكر عليه شيئا. وتثبت وقائع التاريخ الإسلامى استخدام المسلمين لأهل الذمة فى الوظائف مع احتفاظهم بديانتهم ودون تخليهم عنها، فعندما تولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة ٥٦ هـ ولى إدارة السجن لرجل من النصارى، وبعد فتح مصر بقى العمال البيزنطيون فى أعمالهم ولم يفصلوا منها، وولى الخليفة المنصور الذى يلقب بالخليفة الآمر أحد النصارى منصب الوزارة.

ولم يعرف تاريخ الإسلام تعصبا ضد نصرانى أو يهودى تولى عملا من الأعمال[1].

ونخلص إلى أن المعاملات بين المسلم وغير المسلم فى دار الإسلام التى تحكم بسلطان المسلمين مباحة باتفاق العلماء، أما المعاملات التى تقع فى دار الحرب التى لا تدخل تحت سلطة المسلمين اختلف الفقهاء فى حكمها وإن كان الراجح جوازها[2].

---

(١) الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ١٧ .أ.د/ عبد الغفار هلال.

(٢) انظر: علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود ص ٤٠ ـ ٤٥.

«ومتى وقعت المعاملة بين المسلم وغير المسلم فى دار الإسلام أو دار الحرب، وجب الوفاء بهذا الالتزام، إذ إن الأساس الإسلامى الأول فى المعاملات بين الناس هو الارتباط بالالتزام والوفاء بالحقوق، تنفيذا لما جاء فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة ١)»[1].

وأهل الذمة الذين يعيشيون فى الديار الإسلامية على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. فقد قرر الفقهاء أن عقد الذمة المؤبد يشترط فيه شرطان:

أولها :أن يلتزم الذميون إعطاء التكليفات المالية على القادرين لكى يسهموا فى بناء الدولة ويشتركوا فى تكوين ميزانها المالى وهذا ما يسمى بالجزية وهو مقابل ما يدفعه المسلمون من زكاة.

ثانيها :أن يلتزموا أحكام الإسلام فى المعاملات المالية وفى العلاقات الاجتماعية بالناس.

أما ما يتعلق بحريتهم الشخصية وقوانين الأسرة من زواج وأحكام فإن الإسلام فى هذا يتركهم يتبعون فيها أمور دينهم ولذلك جاءت فى كتب الفقه تلك العبارة «أمرنا بتركهم وما يدينون». ولقد قرر الحنفية أن لهم أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير وللمجوس منهم أن ينكحوا بناتهم، بل أكثر من هذا إن المذهب الحنفى أوجب حماية حريتهم الشخصية فى هذا المقام، فلو أن مسلما أراق خمرا لذمى أو

---

(١) انظر: علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود ص ٤٥ .

قتل خنزيره وجب عليه أن يدفع قيمته ولو فعل ذلك مع المسلم لم يجب عليه شيء[1].

فللذمي حقوق اختصه الإسلام بها:

أولها: له حق التمتع بحريته الدينية كاملة، فلا يضار في دينه، ولا يضطهد، ولا يؤذى، ولا يعتدى عليه بقول أو فعل فيما يمس عقيدته الدينية، وفي أعماله التي يبيحها له دينه مادام العمل في دائرة شخصه أو أسرته حتى لو أنَّه كان يستبيح في دينه ما لا يبيحه الإسلام.

ثانيها: لهم حق التقاضي فيما بينهم في شئون الأسرة، فلهم أن يتحاكموا إلى قضاة من أهل دينهم في الأمور التي تتصل بدينهم، وليس لولي الأمر أن يتدخل في هذه إلا في إحدى حالتين:

إحداهما: أن يختاروا التحاكم إلى القاضي أي قاضي الدولة الإسلامية وفي هذه الحال ينفذ عليهم الحكم الإسلامي، ويكون لولي الأمر سلطان عن طريق سلطان قضائه.

والثانية: أن يكون أحد الخصوم مسلما، فإن القاضي المسلم هو المختص؛ حفظا لحق المسلم ولحريته الدينية التي هي حق الجميع[2].

---

(١) أنظر: العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) انظر: العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٦١.

* الإسلام نظام إنساني ص١٦٩، ١٧٠ أ.د مصطفى الرافعي ـ الناشر مكتبة الحياة بيروت.

* أهل الذمة في الفتاوى المقدسية (الكتاب كله) تأليف الأستاذ / إسحق موسى الحسيني، وهو بحث ألقي في العيد الألفي للأزهر، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٣ م.

فالإسلام اهتم بحماية كرامة الإنسان حتى وإن كان غير مسلم وحافظ على حقوق غير المسلمين وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين فى جميع الحقوق، فليس فى الإسلام تفرقة عنصرية بسبب الجنس أو اللون أو الدين، كما يوجد فى أديان وملل أخرى[1].

فالمتتبع لنصوص القرآن والمأثور من الحديث النبوى يرى حقائق واضحة تسود معاملة المسلمين لغيرهم وتلك الحقائق هى: العدالة، والمعاملة بالمثل، والوفاء بالعهد، ونشر الفضيلة، ونصر الضعيف من غير نظر إلى جنسه أو لونه أو دينه، وحماية الحريات وخصوصا حرية الاعتقاد ومنع الفتنة فى الدين[2].

---

(١) انظر: حماية الحقوق بين اليهودية والإسلام. دراسة مقارنة ص ١٢٨ - ٢٦٠. رسالة ماجستير بجامعة الأزهر كلية أصول الدين بالمنوفية - إشراف أ. د / إبراهيم عبدالرحمن عتلم - إعداد / على سيد أحمد السيد ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م.

(٢) انظر: العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ١ - ١٢.

المبحث الثانى

العلاقة بين المسلم وغير المسلم فى حالة الحرب

الحرب فى الإسلام أمر مكروه ولذلك قال الله ـ تعالى ـ عنها :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة ٢١٦).

ونهى النبى ـ ﷺ ـ عن تمنى الحرب أو لقاء العدو فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد والسير) عن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال :[لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا] . وفى رواية أخرى يقول ﷺ :[يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا] (صحيح مسلم بشرح النووى) (كتاب الجهاد والسير ص ٤٥ ـ ٤٦) . فالإسلام يكره سفك الدماء ومن أجل ذلك فإنه لا يلجأ إلى الحرب والقتال إلا إذا كانت ثمة ضرورة ملجئة إليها ولا بديل عنها لدفع اعتداء المعتدين ورد كيد المكيدين . ولأن الحرب أمر مكروه فى الإسلام، فإنه لا يصح أن يبادر المسلمون أعداءهم حتى يدعوهم إلى إحدى خصال ثلاث :

إما الإسلام يرتضونه دينا فيكونون مثلهم ولا ينقبون عن قلوبهم قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (النساء ٩٤).

وإما العهد يعاهدونهم عليه أن يكون سلمهم سلم المسلمين

ويدفعوا الجزية مقابل دفاع المسلمين عنهم فإن رضوا بالعهد وفى إليهم المسلمون عهدهم على مقتضى أحكام العهد.

وكل ذلك اتقاء للحرب ما أمكن، حتى إنهم يوجبون على قائد جيش المسلمين إذا دعاهم إلى الإسلام أو العهد، ولم يجيبوا على أيهما ألا يحارب فور ذلك بل عليه أن يتركهم فترة ولتكن ليلة مثلا ثم يجدد لهم الدعوة بعدها لعلهم يكونون قد فكروا وتدبروا ما فيه مصلحتهم بعدها، وإذا تجاوز القائد ذلك، ولم يخيرهم من حقهم أن يتظلموا إلى خليفة المسلمين.

ففي خلافة عمر بن عبد العزيز، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، يشتكون إليه قتيبة قائد جيش المسلمين دخل مدينتهم غدراً بغير وجه حق دون أن يخيرهم بين الإسلام أو المعاهدة أو القتال، فكتب عمر إلى واليه هناك أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا، فنصب لهم الوالى قاضيا ينظر فى شكواهم، فحكم القاضى وهو مسلم بإخراج المسلمين من سمرقند ثم يخير أهلها وفقا لمبادئ الحرب الإسلامية، فلما رأى أهل سمرقند هذا العدل من المسلمين رضوا وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم[1].

وليس فى هذا إكراه على الإسلام، لأن التخيير بين أمور ثلاثة والمعاهدة على الأمن والسلم لا يعد إكراها فى الدين المنهى عنه

(١) انظر:

* العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٣.

* من روائع حضارتنا ص ١٠٤، ١٠٥ أ.د/ مصطفى السباعى. الناشر: دار السلام بدمشق.

بصريح القرآن:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

وإذا وقعت الواقعة وكان القتال وهو الخيار الثالث بعد الإسلام والعهد، فإنه لا يباح كل ما للعدو من مال وأولاد ودماء، فيصبح الفتك والإفساد مباحين فى إطلاق من غير قيود فى أرض العدو كما هو الشأن فى الحروب المعاصرة فإنها حروب مدمرة يباح فيها كل شيء وتهلك الحرث والنسل ولا تفرق بين أرض المعركة ودور العبادة.

إن الحرب فى الإسلام ضرورة تقدر بقدرها وهى مقيدة بالأحكام الدينية السماوية مقيدة بتقوى الله ـ عز وجل ـ فانظر وتأمل هذا الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد والسير) عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: [اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على

المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفئ شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله] . . .وروى الإمام مسلم أيضا في صحيحه (كتاب الجهاد والسير) عن نافع عن عبد الله :[أن امرأة وجدت في بعض مغازى رسول الله ـ ﷺ ـ مقتولة فأنكر رسول الله ـ ﷺ ـ قتل النساء والصبيان] .وفى رواية أخرى عن ابن عمر قال :[وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازى فنهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن قتل النساء والصبيان] .

ويقول الإما م النووى معقبًا على هذا الحديث : «وأجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا فإن قاتلوا :قال جماهير العلماء يقتلون وأما شيوخ الكفار فإن كان فيهم رأى قتلوا وإلا ففيهم وفى الرهبان خلاف قال مالك وأبو حنيفة لا يقتلون . .»[1] .

وقد نقل عن أبى بكر الصديق والليث بن سعد وأبو ثور والأوزاعى ـ رضى الله عنهم ـ أنه لا يجوز قطع أشجار الكفار وتحريقها[2] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ ص ٤٨ .

(٢) انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ ص ٥٠.

إن حروب الإسلام كما ورد عن النبى - ﷺ - والصحابة من بعده كانت مقيدة بأمور أربعة :

أولها : ألا يقتل غير المقاتل ، فلا يقتل أحد من الذرية ولا أحد من النساء والشيوخ الضعاف الذين ليست لهم قوة فى الحرب ولا يمدون المحاربين بالسلاح وعتاد الحرب وكذلك لا يقتل الرهبان وأصحاب الصوامع ، فقد روى أبو داود فى سننه عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال [انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة] . . . وروى ابن ماجة في سننه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا بعث جيوشه قال : [اخرجوا باسم الله ، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع] .

الأمر الثانى :منع إتلاف الأموال إلا إذا كانت لها قوة مباشرة فى الحرب كالأسلحة ، والخيل فإنها تتلف أو يستولى عليها أما غير هذا فلا يمس ، وهذه وصية أبى بكر الصديق لأحد قواده الذين بعثهم للحرب :إني موصيك بعشرة لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكلة ولا تجبن ولا تغلل[1] .

فانظر هذه الوصية الكريمة وقارن بينها وبين ما نراه اليوم ونشاهده من آثار الدمار والخراب والفساد فى الأرض الذى تتركه الحروب المعاصرة .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١ / ١١٨ ، ١٣٤ .

الأمر الثالث : احترام الإنسانية والفضيلة فى أثناء الحرب وعلى ذلك لا يصح لقائد ولا لمقاتل أن يمثل بأحد من القتلى أو الجرحى فقد نهى - ﷺ - عن التمثيل بالقتلى كما مر علينا من قبل بل إنه - ﷺ - أمر بإحسان القتل فقال :[إذا قتلتم فأحسنوا القتلة][1] .

فالتعذيب فى القتال والتمثيل بالقتلى لا يجوز بأى حال من الأحوال فى الإسلام فقد أشار بعض الصحابة على النبى - ﷺ - أن يمثل بسهيل بن عمرو لأنه كان يحرض على حرب المسلمين وعلى قتالهم فأشاروا عليه أن ينزع ثنيتيه السفليين حتى لا يستطيع الخطابة بعد ذلك ، فلم يوافقهم النبى - ﷺ - على ذلك بل رفض قائلا : [لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا][2] .

وعندما مثل الكفار بعمه حمزة بن عبد المطلب أقسم ﷺ لأن أظفره الله عليهم ليمثلن بسبعين منهم .ولكنه ﷺ لم يفعل لحرمة التمثيل بالقتلى أو حتى بالأحياء فى الإسلام .وقد قال - تعالى -:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠) .

وقال - تعالى -:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(النحل ١٢٦) .

الأمر الرابع : إجازة الأمان فى ميدان القتال ، منعا لاستمرار القتال

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٨١ .   (٢) مصنف ابن أبى شيبة ١٤ / ٣٨٧ .

كليا أو جزئيا، والأمان جائز للآحاد كما هو جائز للجماعة، فيصح أن يعطى الأمان لشخص حقنا لدمه إن طلب كما يصح أن يعطى الأمان لجماعة ولو كانوا فى حصن متترسين به، فلهم أمانهم ما لم يعتدوا على المسلمين ويخلوا بعهدهم والأمان الذى أعطوه.

وقد وسع المسلمون باب الأمان من عدة نواحى:

(١) لم يجعلوا الأمان بيد قائد الجيش وحده، بل جعلوه بيد أى مسلم أعطى مقاتلا الأمان فهو فى أمان المسلمين وليس لأحد منهم أن ينكث بعهد ذلك المسلم إلا أن يخون ذلك الذى عاهد، وفى الصحيح يقول النبى ـ ﷺ ـ:[المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم][١]. أى أن المسلمين متساوون فى ذلك وأقل واحد منهم يستطيع أن يعقد عقد أمان لمن شاء من المقاتلين.

(٢) بلغ من التوسعة عندهم أن العبد المسلم من المسلمين يجوز له أن يؤمن جيشا كاملاً بشرط أن يسلم الجيش ولا يقاتل ولا يكون ذلك الجيش أسيرا بل يكون من أهل الأمان له ذمة المسلمين أجمعين، وقد حدث أن عبدا مسلما من عبيد المسلمين أعطى أمانا لأهل حصن تحصنوا به، فأرسل أمير الجيش إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ يستفتيه فكتب إليه عمر يجيز أمانه قائلا: إن عبد المسلمين من المسلمين ذمته ذمتهم[٢].

(٣) إنهم ليتوسعون فى معنى العبارات أو الإشارات الدالة على الأمان ولو كانت دلالتها من بعد نحو كلمة (لا تخف) فقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٢ / ١٩٢.

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى، كتاب السير، باب: أمان العبد ٩ / ٦٤.

اعتبرها عمر ـ رضى الله عنه ـ أمانا ، واعتبر الإشارة إلى السماء للمشرك أمانا إذا سلم نفسه على ذلك ولذا كتب ـ رضى الله عنه ـ إلى قواده :«أيما رجل دعا رجلا من المشركين أشار إلى السماء فقد أمنه ، فإنما نزل بعهد الله وميثاقه»(١) .

فهذه توسعة ما بعدها توسعة حقنا للدماء فإنه بموجب هذا الأمان يخرج من صفوف المقاتلين إلى صفوف الآمنين الذين يكونون مع المسلمين في دارهم آمنين بشروط تشترط عليهم ولهم ولعل توسع باب الأمان فيه دلالة واضحة على حد دائرة القتال ما أمكن ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اتجاه الإسلام إلى منع القتال ما أمكن المنع ، فهو لا يقاتل إلا من يحمل السيف وهو قتال للضرورة فإن ألقى السيف وطلب الأمان أعطى الأمان ولا يعتبر أسير حرب بل يعد ذمياً له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين(٢) .

فإذا لم يرجع المقاتل عن قتال المسلمين فإما أن يقتل فى المعركة وإما أن يقع أسيراً فى أيدى المسلمين ، وظهور الأسرى نتيجة حتمية لأى حرب .

ولم يعرف التاريخ محارباً رفيقاً بالأسرى كالمسلمين ، فلقد أوصى الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ ﷺ ـ بالأسير خيراً قال ـ تعالى ـ:

---

(١) أخرجه الدارمي فى سننه ، كتاب الجهاد ، باب الإشارة إلى المشركين والوفاء بالعهد ٢ / ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) انظر : العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٢٣ ـ ٢٧ للشيخ محمد أبو زهرة. الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ٥ ـ ٧ أ.د / أحمد عمر هاشم.

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان ٨).

ولكن ماذا يصنع الإسلام بالأسرى أيمنُّ عليهم بالحرية أم تؤخذ عنهم الفدية أم يسترقون؟ قال تعالى:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد ٤).

فالنص القرآني يخير بين أمرين لا ثالث لهما وهما إما أن يمن القائد أو ولي الأمر من المسلمين على الأسرى بالحرية إذا لم يكن فداء من مال أو نفس، وإما أن يفتدى الأسرى بمال أو بأسرى مثلهم من المسلمين وهذا ما يسمى في عصرنا هذا تبادل الأسرى.

وإذا كان النص القرآني ليس فيه الأمر باسترقاق الأسرى، فهو كذلك ليس فيه ما يمنع استرقاقهم منعا صريحا وإن كان النص القرآني أقرب إلى المنع لأنه حصر التخيير في أمرين: المن أو الفداء.

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية فلن نجد فيها نصا صريحا ينهى عن الاسترقاق نهيا صريحا، حتى إن أصحابه - ﷺ - ليسترقون في غزوة بني المصطلق فلا ينهاهم بصريح العبارة ولكن يعمل عملاً من شأنه أن يحملهم على فك رقاب من أسروهم، فقد روت الصحاح كصحيح البخاري ومسلم [أن رسول الله - ﷺ - لما انصرف من

غزوة بني المصطلق ومعه جُوَيْرِيَة بنت الحارث وكانت فيمن أسر دفعها إلى رجل من الأنصار تكون في ضيافته وأمره بإكرامها، وقد عاد - ﷺ - إلى المدينة فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار لفدائها، فلما كان بالعقيق، نظر إلى الإبل التي جاء بها فداء لابنته فحجز منها بعيرين استحسنهما وضن بهما على الفداء ثم أتى النبي - ﷺ - وقال مخاطبا النبي - ﷺ -: يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها فقال له الرسول - ﷺ -: فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا .. فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وإنك لرسول الله فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله..].

فلما أسلم الحارث أسلم معه ابنان له وناس من قومه وأسلمت ابنته جُوَيْرِيَة أيضا وحسن إسلامها فخطبها رسول الله - ﷺ - من أبيها فزوجه إياها. تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - وهي راوية الحديث: (وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله - ﷺ - قد تزوج جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضرار فقال الناس: أصهار رسول الله - ﷺ - وأرسلوا ما بأيديهم من الأسرى الذين استرقوهم. فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[١].

ففي هذا الفعل النبوي الكريم منعٌ للاسترقاق وإن لم يصحبه نهي بالقول، فالإسلام جاء لتحرير الناس وليس لاستعبادهم واسترقاقهم.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في (كتاب الجهاد والسير)، وابن كثير في البداية والنهاية ٤ / ١٥٦.

«وإنه من الحق أن نقرر في هذا المقام أن النبي - ﷺ - لم ينشيء في حروبه رقا على حر قط، فما أسر أسيراً واسترقه، ولا فرض الرق على مخلوق كان حرا قبل أن يفرضه، نعم إنه لم ينه عن الرق نهيا صريحا، ولكن أفعاله كلها كانت تتجه إلى استنكاره ... وفوق ذلك كان يحث على عتق كل الذين جرى عليهم الرق، وكذلك كان الشأن في القرآن الكريم..»[1].

وبفضل الإسلام قد تم تحرير كل العبيد والقضاء تماما على نظام الرق، الذي كان منتشرا قبل الإسلام في كل المجتمعات.

ولما جاء عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - واشتد القتال بين المسلمين والمجوس في الشرق وبين المسلمين والروم في الغرب، وكان استرقاق الأسرى نظاما متبعا في الحروب، وقد أسر أعداء المسلمين من المسلمين أسرى واسترقوهم، فسار قواد المسلمين على سنة المعاملة بالمثل فاسترقوا أسراهم كما استرقوا أسرى المسلمين قال - تعالى -:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة ١٩٤).

وعلى الرغم من ذلك فقد اختلفت نظرة الإسلام إلى الأسرى عن نظرة غيره، فلقد حفلت صفحات التاريخ الإسلامي بكثير من الحوادث التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن نظرة الإسلام

(١) العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٣٤، ٣٥.

للأسرى كانت كنظرته تماما إلى الأحرار، ومما يدل على احترام الإسلام لهم وتكريمه إياهم، أنه وسد إليهم الأمر فى كثير من الولايات والإمارات الإسلامية وتقلبوا فى أعظم مناصب الدولة، إلى أن جاء زمن كانوا فيه هم النخبة الممتازة في الخلافة. ومما يروى في ذلك أن هشام بن عبد الملك سأل الزهرى من يسود أهل مكة قال :عطاء! قال الخليفة : بم سادهم؟ قال : بالديانة والرواية، قال الخليفة : نعم، من كان ذا ديانة حقت له الرئاسة ثم سأل عن اليمن. فقال الزهرى :إمامها طاووس، وسأل عن مصر وغيرها فذكر له الزهرى أسماء سادتها من الموالي، حتى إذا أتى على ذكر النخعى قال :إنه عربى، فقال الخليفة : الآن فرجت عنى .. والله ليسودن الموالى العرب، ويخطب لهم على المنابر[1].

وبالنسبة لرعايا الدولة المحاربة فقد ضمن لهم الإسلام حقوقهم كاملة لا ينتقص منها شيئا وفعل الرسول - ﷺ - معهم وفعل الصحابة - رضوان الله عليهم - خير دليل على ما نقول.

فقد أعطى الإسلام لمن أعطاهم الأمان حق الإتجار والتعامل مع المسلمين بكافة صور وأشكال التعامل التى تتماشى مع الشريعة الإسلامية، وصان الإسلام أموالهم، فمن له مال منهم في دار

---

(١) انظر :

* الإسلام نظام إنسانى ص ١٩٢، ١٩٣ د. مصطفى الرافعى.
* العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٣٢ - ٤٢.
* الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ٥، ٦ أ.د / أحمد عمر هاشم.

الإسلام يبقى على ملكه ولا تزول عنه ملكيته حتى لو عاد إلى دار الحرب وحمل السلاح محاربا للمسلمين، ولو مات المستأمن فى دار الإسلام أو فى دار الحرب لا تذهب عنه ملكية ماله وتنتقل إلى ورثته عند جمهور فقهاء المسلمين خلافا للشافعى، فالفقهاء المسلمون لا يصادرون ماله إلا فى حالة واحدة وهى إذا حارب المسلمين وأسر أو سبى وصار رقيقا فإنه فى هذه الحال تزول عنه ملكية ماله، ويكون ماله فى هذه الحال لبيت مال المسلمين[1] .

وكما أعطاهم الإسلام الحرية الكاملة فى التعامل مع المسلمين وفى ممتلكاتهم وصان حرماتهم وأعراضهم أعطاهم أيضا الحرية الكاملة فى إقامة شعائر دينهم والمحافظة على دور عبادتهم، وفى فعل عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه- مع أهل إيلياء خير دليل على ذلك فقد أعطاهم أمانا على أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وحذر من هدم كنائسهم أو الاعتداء عليهم[2] .

فقد جاء فى العهد الذى أعطاه عمر بن الخطاب لهم ما يلى :

«وهذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على ترك دينهم

(١) انظر : العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٢٨ .

(٢) انظر : الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ٥ أ.د / أحمد عمر هاشم.

ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»[1].

وهو نفس ما أعطاه خالد بن الوليد لأهل عانات وعمرو بن العاص لأقباط مصر ومحمد الفاتح عند فتح القسطنطينية مقر البطريكية الأرثوذكسية فى الشرق كله[2].

فماذا عن الجزية التى تؤخذ من أهل الكتاب بعد انتهاء القتال مصداقًا لقوله ـ تعالى ـ:

﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

(التوبة ٢٩).

يقول صاحب تفسير المنار فى تفسيرها: «هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا، أى قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم، كما فعل الروم فكان سببًا لغزوة تبوك حتى تأمنوا عداوتهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما، فالقيد الأول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أى قدرة، وسعة، فلا يظلمون ويرهقون، والثانى لكم وهو الصغار المراد به: خضد شوكتهم والخضوع

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ لابن جرير الطبرى ـ طبعة دار المعارف بمصر.

(٢) انظر: حماية الحقوق بين اليهودية والإسلام. دراسة مقارنة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧. رسالة ماجستير بجامعة الأزهر ـ كلية أصول الدين بالمنوفية. إعداد / على سيد أحمد السيد ١٩٩٦م.

لسيادتكم وحكمكم .. فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل ولم يكونوا حائلاً دونها فى دارٍ الإسلام، والقتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولى بأن ينتهى بإعطاء الجزية ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون أهل الذمة؛ لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم بعهد أو ميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين...»[1].

«فالجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض مقابل حمايتهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم التجنيد للقتال مع المسلمين، وجزاء مساواتهم فى الحقوق مع المسلمين وهى نظير ما يدفعه المسلمون من الزكاة والصدقة، فإذا انشغل المسلمون عن حماية من يأخذون منهم الجزية سقطت الجزية ورد المسلمون ما أخذوه منهم من جزية»[2].

---

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٨٩ للشيخ / السيد رشيد رضا. الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت.

(٢) انظر:

* تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٩٠-٢٩٧.
* الإسلام نظام إنسانى ص ١٢٨ - ١٣٣. أ.د / مصطفى الرافعى.

ونستطيع أن نجمل الأصول الكلية والمبادئ التى تقوم عليها العلاقات الدولية فى الإسلام مع الآخر كما جاءت فى القرآن والسنة فى حالتى السلم والحرب فى الآتى :

(١) مبدأ العدل :

العدل فى الإسلام مبدأ مطلق لا يقبل التجزئة، وصفة تشريعية واقعية كلية تحكم جميع جزئيات التشريع الإسلامى سواء فيما يخص علاقة الإنسان بنفسه أو علاقته بغيره من الناس، أو علاقته بربه - سبحانه وتعالى - إلا أن الذى يعنينا هنا علاقة الإنسان بغيره حيث جاء الأمر بوجوب العدل مع العدو، والنهى عن أن تكون العداوة له دافعاً وسبباً فى الحيف عليه، قال - تعالى -:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ٨).

فالعدل فى الإسلام لا تؤثر فيه قرابة القريب ولا عداوة العدو، قال - تعالى -:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ (النساء ١٣٥).

ولما أوجب الإسلام على المسلم العدالة المطلقة مع الغير كان على المسلم أن يعامل من يعتدى عليه بالمثل دون تجاوز.

قال تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة ١٩٤).

(٢) مبدأ الحرية:

الحرية من المبادئ الكلية التى قامت عليها علاقات المسلمين بغيرهم، انطلاقًا من التشريع الإسلامى، فقد خلق الله الإنسان مختارًا حرًا، وأعطاه القدرة على التمييز بين الخير والشر.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان ٣).

فقد أعطاه ـ سبحانه ـ حرية التدين: فالإسلام لم يلزم غير المسلمين من ذوى الديانات السماوية الأخرى بترك دينهم وإن انضووا تحت راية الدولة الإسلامية، بل أقرهم على ما كانوا عليه من دين ويكونون فى ذمة الله ورسوله قال ـ تعالى ـ:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس ٩٩)[1].

(٣) مبدأ الوفاء بالعهد:

إن هذا المبدأ من أهم المبادئ التى قامت عليها علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم، وفيه يقول ـ تعالى ـ:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴾ (النحل ٩١).

فقد بين الله ـ سبحانه ـ أن نقض العهد إنما هو نقض لكفالة الله وضمانته وشهادته؛ بل لا يجوز للمسلمين وإن خافوا من عدوهم الخيانة والمكيدة إلا أن ينابذوا العهد على سواء، أى على استواء فى

---

(١) انظر:

* مجلة إسلامية المعرفة التى يصدرها المعهد العالمى الإسلامى بباريس السنة الثامنة .العددان ٣١، ٣٢ شتاء١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ربيع ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م، وكان هذا العدد من المجلة خاص بقضايا الحرية، وقد نشرت فيه تسعة أبحاث تناولت موضوع الحرية من جوانب عدة ومن بين هذه الأبحاث:

ـ بحث: الحرية فى الإسلام أصالتها وأصولها أ.د/ أحمد الريسونى.

ـ بحث: حرية التفكير والاعتقاد فى المجتمع المسلم: أبعادها وحدودها أ.د/ عبدالمجيد النجار.

ـ بحث: الحرية فى العقل الكلامى والفلسفى الإسلامى أ.د/ عرفان عبدالحميد فتاح.

ـ بحث: حرية الأقليات غير المسلمة فى العالم الإسلامى.أ.د/ محمد عمارة.

العلم بنبذه مع العدو بحيث يكونون فى حال تساوى مع المسلمين فى نبذ ذلك العهد، وفى ذلك يقول تعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال ٥٨).

فمع ظهور بوادر الخيانة والغدر من الغير إلا أنه لا يجوز أن يكون ذلك دافعاً إلى الغدر بهم والخيانة بنبذ عهدهم على نحو يكون مفاجئاً لهم.

(٤) مبدأ الفضيلة ومنع الفساد:

الفضيلة صفة أصيلة اتسم بها التشريع الإسلامى فى كلياته وجزئياته، ووجوب الالتزام بمبدأ الفضيلة فى الشريعة الإسلامية يكون فى جميع الحالات والأوقات سواء فى حالة السلم أو الحرب، فقد ورد فى حديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى ـ ﷺ ـ مقتولة فأنكر رسول الله ـ ﷺ ـ قتل النساء والصبيان» قال الإمام النووى: وأجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان. (شرح صحيح مسلم للإمام النووى ١٢ / ٤٨).

وروى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة] أخرجه أبو داود، المصنف لابن أبى شيبة ٦ / ٤٨٣.

وقد وصى الصديق أبو بكر بعض قواده قائلاً: «لا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا شيخًا كبيرًا.. وإنك ستلقى أقوامًا زعموا أنهم فرغوا أنفسهم لله في الصوامع فذرهم وما فرغوا له أنفسهم». أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٢ / ٤٤٨، والبيهقي في سننه ٥ / ٩٩، ٢٠٠.

فالقيم الخلقية والثوابت العَقَديَّة أسس تنطلق منها وتقوم عليها علاقات المسلمين بغيرهم، فالتشريع الإسلامي هو تشريع ذو صبغة خلقية في جميع جوانبه.

(٥) نصر الضعفاء: فقد جاء الإسلام ليخلص البشرية من الظلم والاستبداد والطغيان والرق والاستعباد، فأوجب على المسلمين الوقوف مع المظلومين والضعفاء في وجه الظالمين والأقوياء. قال - تعالى -:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء ٧٥)[1].

وإذا كان هناك بعض قواد المسلمين قد انحرفوا عن تلك المبادئ فلذلك أسباب أهمها:

(١) انحرافهم عن أوامر دينهم التي أمرتهم بالوفاء بالعهد

---

(١) انظر: * البعد الحضاري للعلاقات الدولية في الإسلام ص ١ - ٦. أ.د / جابر بن على السعدي، وهو بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م.
* العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ١ - ١٣.
* من روائع حضارتنا ص ٩٧ - ١١٣. أ.د / مصطفى السباعي.

والعدل والفضيلة .

(٢) اندفاع عدو المسلمين إلى الغدر وانتهاك الحرمات ، والقسوة على المسلمين وذلك مما يدفع بعض القواد إلى المعاملة بالمثل ، وما كان لهم أن يسايروهم في غدرهم وضلالهم .

(٣) بعض هؤلاء القواد كانوا ينتمون إلى تلك الأمم التي كانت تحارب المسلمين بشدة وغلظة عندما كانوا غير مسلمين فلما أسلموا غلب عليهم طبعهم فلم يتأثروا بسماحة الإسلام كقواد التتر مثل تيمورلنك وبعض قواد الأتراك[1] .

---

(١) انظر : العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ١٣ ، ١٤ .

الفصل الثانى
الحوار والتفاهم والتبادل الحضارى بين المسلمين والآخر

الفصل الثانى

الحوار والتفاهم والتبادل الحضارى بين المسلمين والآخر

المبحث الأول

حوار المسلمين مع الآخر

الحوار في اللغة كما ورد فى لسان العرب معناه الرجوع عن الشيء إلى الشيء، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام فى المخاطبة.

وقد وردت مادة: حاور ومشتقاتها في القرآن ثماني مرات منها مرة في سورة آل عمران الآية ٥٢ في قوله ـ تعالى ـ:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

ومرتان في سورة المائدة الآيتان ١١١ ـ ١١٢ في قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ومرتان فى سورة الصف الآية ١٤ فى قوله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

ومرة فى سورة المجادلة الآية ١ فى قوله - تعالى -:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

ومرتان فى سورة الكهف فى الايتين ٣٤ ، ٣٧ فى قوله - تعالى -

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾

وقوله - تعالى -:

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾

ومن إعجاز القرآن أن السور التى ورد فى بعض آياتها مادة حاور بمشتقاتها يغلب عليها الحوار فى باقى آياتها ، فعلى سبيل المثال سورة الكهف المتأمل فيها سيجد أنها تكاد تكون مبنية على الحوار فقد اشتملت على حوار فتية الكهف والجدل الذى دار حولهم فى الآيات

من ٩ - ٢٦ ثم على حوار مع النبى - ﷺ - فى الآيات من ٢٧ - ٣١ ثم على حوار صاحب الجنتين وصاحبه في الآيات من ٣٢ - ٤٦ ثم على حوار المجرمين عند عرضهم على ربهم يوم القيامة مع ربهم ومع أنفسهم فى الآيات من ٤٧ - ٥٩ ثم على حوار نبى الله موسى - عليه السلام - مع فتاه من ٦٠ - ٦٥ ثم على حوار موسى - عليه السلام - مع الخضر فى الآيات من ٦٦ - ٨٢ ثم على حوار ذى القرنين مع قومه فى الآيات من ٨٣ - ٩٨.

وهذا لا غرابة فيه لأن الحوار مبدأ أساسى فى الفكر الدينى الإسلامى، وقد اعتمده القرآن كمنهج وأسلوب فى إيصال الحقائق إلى الناس، وقد تنوعت أشكال الحوار القرآني وأصنافه بتنوع المقاصد والأهداف تماشيا مع الفطرة الإنسانية، واحتياجاتها والأغراض التعليمية والتربوية المقصودة، فهناك حوار تذكرى وتعبدى وإيمانى، وإنسانى، وهناك حوار خاص مع الرسول - ﷺ - وهناك الحوار البرهانى، والحوار القرآنى بجميع أصنافه وأشكاله يهذب المشاعر ويوقظ الوجدان ويربى العواطف الربانية ويجيب على أسئلة السائلين، وآثاره التربوية كثيرة وأهمها: كشفه عن العناية الإلهية بالإنسان وقيمة الإنسان عند الله تعالى وهو يحاوره أو يستمع إليه، ليخرجه من ظلمات الجهل والشرك إلى نور المعرفة والتوحيد(١).

---

(١) انظر: الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٥ للشيخ/ عبد الأمير قبلان (نائب رئيس المجلس الإسلامى الشيعى الأعلى - لبنان) وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام ٢٠٠٢م).

وقد حثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الحوار الهادف وقد ورد ذلك فى كثير من الآيات التى تعرضت للحوار مع المشركين كقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (لقمان ٢٥).

رغم أن هؤلاء المشركين كانوا يعبدون الأصنام تقربا إلى الله وإشراكًا به فإن الحوار يأتى لتبادل المعلومات واستبدالها بمعلومات صحيحة فيها الخير للإنسان.

ومن شروط حوار الإنسان مع أخيه الإنسان أن يكون الحوار ذاته المقصود به سعادة الإنسان ورقيه وليس الحصول على منفعة شخصية، فليس هناك من نبى حاور قومه ونقل الرسالة الإلهية إلى الإنسان الآخر من أجل منفعة شخصية لنفسه، وإنما كان الهدف هو إنقاذ الإنسان وسموه ورقيه من خلال تطبيق المنهج الإلهى فى الأرض، ومثال ذلك النبى صالح والنبى هود عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن، فقد نفوا أن يكون من وراء دعوتهم منفعة شخصية فقال تعالى على لسانهم:

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (هود ٥١).

وفى شأن سيدنا محمد ـ ﷺ ـ يقول ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبأ ٤٧).

ولكن وإن تعددت الرسالات السماوية إلى الأرض إلا أنها في مضمونها وجوهرها واحد تطالب الإنسان وتدعوه إلى الحوار من أجل الرقي وبناء الحضارة، لكن أين تكمن حضارة الإنسان؟؟ إن حضارة الإنسان تكمن في التطبيق العملي للأسس العلمية المنهجية الكامنة في بصيرته التي حصل عليها نتيجة المعلومات الواردة إليه، والتي قام بتحليلها وتركيبها ووضعها في بصيرته ونقلها إلى التطبيق العملي، فلو سألنا مثلا ماذا يميز المجرم عن الإنسان السوى لكان الجواب أن الإنسان السوى هو الذى عرف الخطأ من الصواب لكنه في الوقت نفسه أحجم عن تطبيق الخطأ واستمر في تطبيق الصواب[1].

فبمرور الزمن والصراع القائم بين الخير والشر في الإنسان، وتغليب فكرة الخطأ على فكرة الصواب وإخراجها إلى حيز التطبيق بدلا من منعها، مما أدى إلى تكريس الخطأ على مر الأجيال، فكانت تأتي الرسالات اللاحقة لتبين مضمون تلك الرسالة السابقة، وتأتي برسالة أخرى ثابتة كنفسها السابقة نقية طاهرة كمنهج يتلقاه الإنسان من خلال تطبيقه ويبنى به حضارة، ويمتنع عن تطبيق الخطأ الذى يهدم إنسانيته بذاتها؛ ولهذا فقد انتقل الحوار من الإنسان ذاته إلى الإنسان الآخر، وعندما جاءت رسالة الإسلام كشفت

(١) الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٤ ـ ٥ أ.د/ أحمد بدر الدين حسون (مفتي حلب) وهو بحث ألقى في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م.

عن الأخطاء التي عشـشت في عقول الناس، وتحولت إلى شرور بينهم، وقدمت لهم المنهج الصحيح، ودعت الإنسان إلى التطبيق العملي لهذا المنهج لبناء حضارة الإنسان من خلال سلوكه الصحيح وفقًا للمنهج الرباني.

وحوار الأديان هو الأساس والمدخل للتقارب ولطرح الأفكار الخاطئة لتحل محلها الأفكار الصحيحة.

والحوار بين الأديان فريضة مطلوبة حيث يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ٦٤).

ومما يؤكد على فريضة الحوار بين الإنسان وأخيه الإنسان في كل ملة ودين من أجل بناء الإنسان الحضاري السوي وفق العلم والمعرفة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣)[1].

فالإسلام يدعو إلى الحوار مع الآخر، حيث إن الوحي القرآني،

(١) انظر الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٦ ـ ٧ أ.د / أحمد بدر الدين حسون (مفتي حلب).

نص مفتوح على الزمن، يحاور قارئه ويتفاعل معه، ويجادله بالبرهان والحجة العقلية، من أجل أن يهديه إلى مواطن النور الحق، وهو حوار هادئ مسالم، لا أثر فيه للتعسف والإلزام بالقوة والرهبة[1].

وبذلك أصبح الحوار نهجًا ربانيًا وجزءًا من عقيدة المسلم ومن ثوابتها التى لا تقبل التغيير، أُلْزِمَ به صاحب الرسالة أولاً ثم من تبعه من المسلمين فيما بينهم، وأصبح نهجًا ثابتًا فى الحوار مع الغير حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥).

فهدف الحوار الدعوة إلى سبيل الله، وأسلوب الحوار أو الدعوة لابد أن يتسم بالحكمة والتعقل والاعتدال وإحكام الأمور وأن يكون الحوار موضوعيًا مفتوحًا هادفًا إلى تحقيق الغاية المرجوة منه بعيدًا عن الإثارة وجرح العاطفة ودون عنف أو تعال بل برفق ولين وتواضع، ولذلك قيد الله الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) الإسلام دعوة أصيلة فى السماحة والتعايش السلمى ص ١٥ للشيخ كمال جعيط (مفتى تونس) وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٢م.

وقد يدخل الحوار في مرحلة دقيقة وهي مرحلة الجدال وفي هذه المرحلة من الممكن أن يتخطى الحوار الموضوعية ؛ ولذلك يقيده الله ـ عز وجل ـ بأن يكون بالتي هي أحسن أي بالحجة القوية والبرهان الجلي حتى يتم الإقناع والتسليم دون ضغط أو إكراه.[1].

والحوار والنقاش في الإسلام له آدابه وله أهدافه، الغرض منه المعرفة والاهتداء، أما إذا كان الأمر أمر جدل عقيم يعتمد على المكابرة والإنكار فهو مراء لا حوار وهو تشبث بغير الحق وزيف وضلال.

وإذا كان أهل الكتاب يجادلون المسلمين فعلى المسلمين أن يتبعوا الأسلوب الحسن في الدعوة والحوار كما أمرهم الله ـ تعالى ـ في قوله ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت ٤٦)[2].

فهناك قاسم مشترك بين الإسلام وباقي الأديان السماوية الأخرى وهو التوحيد، ومن أجل ذلك يتوجه النداء الإلهي إلى النبي ـ ﷺ ـ يأمره فيه أن يوجه الدعوة إلى أهل الكتاب لإقامة الحوار على أساس

(١) انظر: الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٦ للشيخ / عبد الأمير قبلان.

(٢) انظر الإسلام وموقفه من غير المسلمين ص ٩ ـ ١٠ أ.د / عبد الغفار هلال.

القاسم المشترك بينهما وهو التوحيد فقال ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٦٤).

وهذا النداء يشكل أول نداء عالمي للتعايش بين الديانات الموحدة، وهو أول نداء عالمي للتعايش السلمي بين المجتمعات.[١]

فدين الإسلام يتميز بالسماحة فها هو النبي ـ ﷺ ـ يقول: [إني أرسلت بحنيفية سمحة]. رواه الإمام أحمد في مسنده ويقول أيضا ـ ﷺ ـ [أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة] ـ رواه البخاري والإمام أحمد.

ويقول الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(آل عمران ١٥٩).

ونستطيع أن نقول مع الدكتور محمد عمارة: «أن السماحة قد بدأت في التاريخ الإنساني بظهور الإسلام، وأنها قد بلغت فيه مستوى متميزاً، لا نظير له خارج الإسلام»[٢].

---

(١) انظر: الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٦ للشيخ / عبد الأمير قبلان.

(٢) سماحة الإسلام ص ١ أ.د/ محمد عمارة. بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م.

فلقد ظهر الإسلام وليس فى العالم دين ولا حضارة تعترف بالآخر أو تسالم الآخرين، فاليهودية التلمودية، قد تحولت إلى ديانة عنصرية يقول لها عهدها القديم :أن اليهود بحكم الولادة والعرق والدم والجنس هم شعب الله المختار وأبناؤه وأحباؤه، وأن علاقتهم بالآخرين ليست فقط علاقة الكراهية واللعن والإنكار، بل المطلوب منهم أن يأكلوا الشعوب الأخرى، حيث إن إبادة الآخرين عندهم تكليف إلهى[1] .

ولقد تعرض القرآن لهذه العنصرية من قبل اليهود والنصارى فقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾

(المائدة ١٨).

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾

(البقرة ١١١).

---

(١) انظر:

* سماحة الإسلام ص ١ أ.د/ محمد عمارة.
* حماية الحقوق اليهودية والإسلام (دراسة مقارنة) ص ٥٤ ـ ١١٩ رسالة ماجستير بجامعة الأزهر ١٩٩٦م.

وإذا كان اليهود والنصارى كما أخبرنا القرآن قد أنكروا الآخر وفرضوا عليه العنصرية، فإنهم لم يسلموا مما فرضوه على غيرهم، فقد تنكر كل منهما للآخر قال الله - تعالى - عنهم:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (البقرة ١١٣).

فماذا كان موقف الإسلام من هذه العنصرية والتنكر للآخر ؟هل قابل هذه العنصرية بعنصرية مماثلة كما فعل النصارى مع اليهود ؟!.

الإسلام قابل هذه العنصرية بالحوار البناء عن طريق إقامة الحجة والبرهان التي دحض بهما عنصريتهم وإنكارهم للآخر فتأمل وتدبر هذه الآيات:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

(البقرة ١١١-١١٣).

وفى سورة المائدة :ـ

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (المائدة ١٨).

وهذا الإنكار للآخر واحتقاره واضطهاده وتجريده من الإنسانية وحقوقها، كان موجوداً فى جميع الحضارات السابقة للإسلام.

ففى الحضارة الغربية، فى بدايتها الإغريقية وفى طورها الرومانى، كانت الديمقراطية قاصرة على قلة من الفرسان الأشراف الملاك، هم الذين يمارسونها فقط ويتمتعون بجميع حقوقها أما غيرهم فإنهم كانوا ـ فى نظرهم ـ برابرة وهمجاً لا حظ لهم فى الديمقراطية ولا فى أى حقوق إنسانية[1].

وفى الحضارة الفرعونية بمصر، قد شاع فيها اضطهاد أتباع «أخناتون» لأتباع المعبود «آمون» فلما انتصر أتباع «آمون» بادلوا أتباع «أخناتون» إنكاراً بإنكار واضطهاداً باضطهاد.

ولما ظهرت النصرانية فى مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى، قوبلت بإنكار شديد واضطهاد اقترب من الإبادة على يد الوثنيين من الرومان المستعمرين والوثنيين المصريين، وقد بلغ هذا الاضطهاد

---

(١) انظر: سماحة الإسلام ص ٢ ـ ٣ أ.د/ محمد عمارة.

ذروته في عهد الإمبراطور الروماني (دقلد يانوس) الذى حوّل النصارى إلى طعام للأسود وقد سُمى عصره بعصر الشهداء ولما اعتنقت الدولة الرومانية النصرانية فى عهد الإمبراطور قسطنطين مارست النصرانية الرومانية المصرية الاضطهاد ضد الوثنية المصرية، فهدمت المعابد وأحرقت المكتبات وحولتها إلى كنائس وأديرة، كان هذا هو موقف العالم وموقف أصحاب الديانات والحضارات من الآخر عندما ظهر الإسلام سنة ٦١٠م.[١].

فلما جاء الإسلام وسطع نوره على ظلام الجهل والشرك فأنار القلوب بنور التوحيد وقضى على العصبية عن طريق وضع لبنات عالمية جديدة تتمثل فى الآتى:

أولاً: بدأ بالتأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو رب العالمين وليس رب شعب ولا أمة دون غيرها من الأمم قال ـ تعالى ـ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة ١).

ثانيًا: أكد على تكريم الإنسان مطلق الإنسان، فليس هذا التكريم لأبناء دين دون دين آخر أو أبناء حضارة دون حضارة أخرى من الحضارات قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء ٧٠).

ثالثًا: جعل التفاوت والتفاضل بين الناس ثمرة لمعايير متاحة ومفتوحة أبوابها أمام كل إنسان ونفى أن يكون التفاوت تبعًا للون

---

(١) انظر: سماحة الإسلام ص ٣ أ.د/ محمد عمارة.

أو جنس معين فقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات ١٣).

رابعـًا :لم يحتكر الإسلام النجاة لأبناء شريعة دون الشرائع الأخرى السماوية فى إطار الدين الإلهى الواحد وإنما أكد على أن :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة ٧، ٨).

بل ضمن الأمن والنجاة لكل من آمن بوحدانية الله تعالى واليوم الآخر وعمل صالحًا حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٦٢).

خامسًا : رفض الإسلام العنف والقتال وسفك الدماء وقرر أن القتال استثناء والأصل السلم ولا يُلجأ إلى القتال إلا عند الضرورة لرد الاعتداء قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠).

فالقتال غير محبب فى الإسلام بل هو مكروه قال ـ تعالى ـ:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة ٢١٦).

سادساً: أوجب الإسلام العدل مع الآخر حتى مع من أنكره وحاربه قال ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ٨).

سابعاً: اعترف الإسلام بجميع الشرائع السماوية السابقة وجعل الإيمان بها جزءاً من عقيدته قال ـ تعالى ـ:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة ٢٨٥).

وذلك لأن الأديان السماوية كلها تستقى من معين واحد.

ثامناً: تعايش الإسلام بسماحته مع جميع االأديان من منطلق قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون ٦).

ولم يجبر أحداً على ترك دينه ليدخل فى الإسلام قال ـ تعالى ـ :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

تاسعاً :أماكن العبادة للديانات الأخرى فى الإسلام محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية أماكن عبادة المسلمين قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ ﴾ (الحج ٤٠).

عاشراً : اختلاف الناس فى أديانهم من وجهة نظر الإسلام لا ينبغى أن يؤدى إلى قتل بعضهم بعضاً أو أن يعتدى بعضهم على بعض ، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾

(المائدة ٢).

وأن الاختلاف فى الأديان لا يحول دون البر والصلة والمودة قال ـ تعالى ـ:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة ٥).

واختلاف الناس فى أديانهم لا يحول دون أن يجادل بعضهم بعضا فيها بالحسنى وفى حدود الأدب والحجة والإقناع قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت ٤٦).

ولا يجوز البذاءة مع المخالفين، ولا سب عقائدهم حتى ولو كانت وثنية قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ (الأنعام ١٠٨)[١].

كانت هذه هى الأسس التى قامت عليها حضارة الإسلام، وبها رأت الدنيا لأول مرة دينًا ينشىء حضارة بلا تعصب على غيره من الأديان، ولا يطرد غير المؤمنين به من مجال العمل الاجتماعى والمنزلة الاجتماعية بل حث على الترابط والتواصل والتعاون والحوار المستمر فى سبيل الوصول إلى الحق والعدل، فتاريخ الفكر الإسلامى لم يعرف مصطلح الأقلية وإنما عرف مصطلح «الأمة الواحدة» التى جعل الإسلام تنوعها واختلافها فى الشرائع الدينية وفى الشعوب والقبائل وفى الألوان والأجناس وفى الألسنة واللغات وفى العادات والتقاليد سنة من سنن الله الثابتة التى لا تبديل لها ولا تحويل.

---

(١) انظر:

* من روائع حضارتنا ٧٩ ـ ٨١ أ.د/ مصطفى السباعى ـ الناشر دار السلام بدمشق.
* سماحة الإسلام ص ٤ ـ ٨ أ.د/ محمد عمارة.

ولم تكن هذه المبادئ التى قررها الإسلام مجرد فكر نظرى لم تعرف طريقها إلى التطبيق كتلك التى تضمنتها كتب سماوية سابقة على القرآن الكريم وإنما تحولت هذه المبادئ التى قررها الإسلام إلى حضارة وتاريخ عريق لا ينكرها إلا جاحد.

ففى معاهدة المدينة التى عقدها النبى - ﷺ - عقب الهجرة مع يهود المدينة، قد نصت نصوصها على التعددية الدينية لرعايا هذه الدولة الإسلامية الناشئة، وعلى المساواة والعدل والإنصاف فى حقوق المواطنة بين أفراد هذه الرعية المختلفة فى الدين، فمما جاء فيها أن: « .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .. وأن بطانة اليهود ومواليهم كأنفسهم .. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحصن ومن أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه..»[1].

بهذه المعاهدة قضى رسول الله - ﷺ - على جميع النزعات والاختلافات التى كانت سائدة فى المدينة قبل هجرته - ﷺ - إليها، وأشهر هذه الخلافات ما كان دائرا من صراع بين الأوس والخزرج.

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٧ - ٢١ جمع وتحقيق د. / محمد حميد الله الحيدر طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

* البداية والنهاية ج٣ ص٢٢٤ لابن كثير دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.

كما فتح النبى - ﷺ - بهذه المعاهدة صفحة بيضاء أمام اليهود للعيش فى سلام مع المسلمين، والتعاون معهم فى حماية هذه الدولة الناشئة من أعدائها الذين يتربصون بها، فكان من المتوقع ألا يقف اليهود بعد ذلك ضد الإسلام؛ بل يكونون معه على عدوهم المشترك الذى يهدد أمنهم وسلامتهم، ولكنهم لما أحسوا بأن دعوة النبى - ﷺ - تقوى وتنتشر يوماً بعد يوم، ولاسيما بعد غزوة بدر الكبرى، أخذوا يشككون في دعوة النبي - ﷺ - ونبوته، والتشهير به بين القبائل، والسير إلى أعدائه لتأليبهم عليه والتآمر على قتله - ﷺ - أكثر من مرة، وذلك مما جعل تعايشهم مع المسلمين فى المدينة مستحيلاً فما كان من النبى - ﷺ - إلا أن أجلاهم عن المدينة.[1].

وكما عقد النبى - ﷺ - معاهدة مع اليهود حفظ بها حقوقهم وأمنهم عقد مع النصارى فى الجزيرة العربية معاهدة أيضاً حفظ بها حقوقهم وأمنهم جاء فيها:

«هذا الكتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجمها، معروفها ومجهولها جعل لهم عهداً إن احتمى راهب أو سائح فى جبل أو واد أو مغارة أو عمران أوسهل أو رمل أو بيعة فأنا أكون من

---

(١) انظر: العلاقات الخارجية لدولة الإسلام فى عهد النبى ﷺ من عام ١ هـ، إلى عام ١١ هـ ص ١٤٣ وما بعدها، رسالة ماجستير بجامعة الأزهر ١٩٩١م، إعداد / أحمد عبد الوهاب عبد الرحمن فتيح، إشراف أ.د / عبد العزيز عبد القادر غنيم.

ورائهم، أذب عنهم من كل غيرة لهم، بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي لأنهم رعيتي وأهل ذمتي، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله، ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر في المشرق والمغرب والجنوب والشمال، وهم في ذمتي و ميثاقي وأماني من كل مكروه، وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم، ولا يلزمون بخروج في حرب، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة، يكف عنهم أذية المكروه حيثما كانوا، وحيثما حلوا، وإن صارت النصرانية عند المسلمين فعليهم رضاها، وتمكينها من الصلاة في بيعها، ولا يحال بينها وبين هوى دينها، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله، ويعاونوا على حرمة بيعهم ومواضعهم، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح، ولا يخالف هذا العهد أبداً إلى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا»[1].

---

(١) انظر: * الإسلام نظام إنساني ص ١٨٤ أ.د/ مصطفى الرافعي.

* مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص١١٢ د. محمد حميد الله حيدر.

وعلى هدى الرسول - ﷺ - في تسامحه الديني مع الآخر وقبوله له وتعاونه معه، وحرصه على حقوقه وأمنه، سار الخلفاء الراشدون من بعده، فإذا بنا نجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما يدخل بيت المقدس يعطي لأهله الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ويمنحهم الحرية الدينية الكاملة ويجيبهم إلى ما اشترطوه عليه من أن لا يساكنهم فيها يهودي، وعندما حانت صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى أبى أن يصلي فيها كي لا يتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً ! ونجده أيضاً وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أخذ دارها وأدخلها في المسجد كرهاً عنها، فيسأل عمراً عن ذلك فيخبره أن المسلمين قد كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم وفي جواره هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض، مما اضطر عمراً إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت. ومع أن هذا مما تتيحه قوانيننا الحاضرة وهي حالة يعذر فيها عمرو بن العاص على ما صنع، فإن عمر - رضي الله عنه - لم يرض ذلك، وأمر عمراً أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت[1].

وهذا ليس بغريب على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي اقتص للقبطي من ابن عمرو بن العاص والي مصر عندما تعدى عليه

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا ص ٨٣ د. مصطفى السباعي.

بالضرب لأنه تقدم عليه في السباق بحجة أنه ابن الأكرمين، فيشتكي القبطي الوالي وابنه إلي عمر بن الخطاب وفي الحال يستدعي أمير المؤمنين عمر والي مصر عمرو بن العاص وابنه ويعطي عمر بن الخطاب الدرة للقبطي ويقول له اضرب ابن الأكرمين وبعد أن اقتص القبطي من ابن عمرو أمره عمر - رضي الله عنه - أن يمرر الدرة على رأس الوالي عمرو بن العاص قائلاً له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، لكن القبطي يرفض ذلك مكتفياً بضرب من ضربه.

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا أن كثيراً من الكنائس والمساجد كان يصلي فيها المسلمون والمسيحيون في آن واحد، فقد سمح النبي - ﷺ - لنصارى نجران أن يصلوا في مسجده عندما حانت صلاتهم بجانب المسلمين وهم يصلون صلاتهم.

وفي إبان الفتح الإسلامي وفي كنيسة يوحنا الكبرى في دمشق رضي المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ويصلوا فيها صلاتهم، فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين، هؤلاء يتجهون إلي القبلة، وأولئك يتجهون إلي المشرق[1].

ومن مظاهر التسامح الديني مع الآخر أنه كانت الوظائف في الدولة الإسلامية تعطي للمستحق الكفء بقطع النظر عن عقيدته

(١) انظر: من روائع حضارتنا ص ٨٥.

ومذهبه، فقد كان الأطباء المسيحيون فى العهدين الأموى والعباسى محل الرعاية لدى الخلفاء، وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، وكان الخلفاء يصادقون من تروق لهم مصادقته بقطع النظر عن دينهم.

ومن مظاهر التسامح الدينى فى حضارة المسلمين الاشتراك بالأعياد الدينية، فمنذ العهد الأموى كانت للنصارى احتفالاتهم العامة فى الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية، وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى فى موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك فى يوم عيد الفصح(١).

ولقد أنشأ الرسول - ﷺ - مع جيرانه ومع جميع الملل والأديان الأخرى حواراً مفتوحاً مثمراً حول الإسلام وأهدافه، وأرسى قواعد التعامل مع أهل الذمة كما رأينا على أسس من السماحة والبر(٢).

فقد أرسل الرسول - ﷺ - كتباً إلى الملوك والرؤساء يبلغهم فيها دعوة الإسلام العالمية، ولكى يعطى العالم كله فى عصره مفهوماً واضحاً عن قضيته وعدالتها، فبعث إليهم بالوفود والرسل، واستقبل أيضاً من عندهم الوفود التى جاءته إما لكى تعلن إسلامها

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا ص ٨٦ - ٩٠.

(٢) انظر: الإسلام دين التحاور والتعارف ص٣ للشيخ / محمود عبد الغنى عاشور وكيل الأزهر السابق وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م.

بين يديه وإما لكى تعقد معه معاهدة سلام وأمن وجوار. ومنهم من لم يقبل الإسلام ورفض أن يعاهد المسلمين ووقف فى وجه الدعوة الإسلامية وأعلن الحرب والعداء للإسلام والمسلمين وهذا الذى كان يرفع المسلمون عليه السيف دون الآخرين كما صنع المسلمون مع ملوك الفرس والروم، فقد أرسل الرسول - ﷺ - إلى ملوك الفرس والروم يدعوهم إلى الله - عز وجل - وإلى الدخول فى دين الإسلام أو مهادنة المسلمين وفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وعدم اضطهاد وتعذيب من يعتنق الإسلام ولكنهم أبوا كل ذلك فكانت الدائرة عليهم.

وأرسل النبى - ﷺ - إلى ملك العرب من النصارى الذين بالشام يدعوه إلى الإسلام ويبقى له ملكه، فغضب وثار وقال:

"من ينزع ملكى؟ إنى سأسير إليه".

وأرسل النبى - ﷺ - إلى المقوقس صاحب مدينة الإسكندرية وملك مصر حاطب بن أبى بلتعة، يقول حاطب: بعثنى رسول الله - ﷺ - إلى المقوقس ملك الإسكندرية قال: فجئته بكتاب رسول الله - ﷺ - فأنزلنى فى منزله وأقمت عنده، ثم بعث إلىَّ وقد جمع بطارقته وقال: إنى سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عنى قال: قلت هلم قال: أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى؟ قلت بلى هو رسول الله، قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلت عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه

رسـول الله؟ قـال بلى. قلت فـمـا له حـيث أخـذه قـومـه فـأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليـهم بـأن يهلكهـم الله حيث رفعـه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك، قال: فأهدى إلى رسول الله - ﷺ - ثلاث جوار، منهن أم إبراهيم بن رسول الله - ﷺ - وواحدة وهبها رسول الله - ﷺ - لحسان بن ثابت الأنصارى، وأرسل إليه بطرف من طرفهم.

وبعث رسول الله - ﷺ - رسالة إلى صاحب اليمامة وصاحبى عمان[1].

وإذا كان النبى - ﷺ - قد بعث برسله ورسائله إلى خارج الجزيرة العربية، فإنه كذلك قد أرسل رسله إلى كافة أنحاء الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، فبعث بخالد بن الوليد إلى يهود نجران فأسلموا ودخلوا فيما دعوا إليه، فعاد خالد من عندهم إلى النبى - ﷺ - ومعه وفدهم الذين بايعوا النبى - ﷺ - على الإسلام فأجازهم النبى - ﷺ - ورجعوا إلى قومهم.

وبعث ملوك حمير إلى النبى - ﷺ - يعلنون إسلامهم وقبول دعوته، فأجازهم النبى - ﷺ - وأمر عليهم مالك بن مرة الزهاوى وهو منهم.

(١) انظر: * البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٢ - ٢٧٣.
* صحيح مسلم بشرح النووى ج١١ص ١٠٣ - ١١٣ (كتاب الجهاد والسير باب كتب النبى ﷺ).
* صحيح البخارى (كتاب الجمعة: باب المكاتبات).
* زاد المعاد ج ٣ ص ٦٠ - ٦٢ لابن القيم المطبعة المصرية ومكتبتها.

وبعث رسول الله - ﷺ - أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن كل واحد منهما على مخلاف والمخلاف كالمديرية أو المحافظة وأوصاهما بالتيسير وعدم التعسير والتبشير وعدم التنفير، وقدم على النبى - ﷺ - وفد غسان من نصارى العرب يعلنون إسلامهم وكذلك نصارى تغلب[1] وقد كتب النبى - ﷺ - إلى نصارى نجران وهى أكبر الجماعات النصرانية فى جزيرة العرب كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، وبعد تشاور وتحاور فيما بينهم بعثوا إلى النبى - ﷺ - وفدهم المكون من ستين راكباً منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أميرهم، والسيد مدير أمورهم وشئونهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، فلما قدموا على النبى - ﷺ - دخلوا عليه مسجده - ﷺ - وقت صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده - ﷺ - فأراد الناس منعهم، فقال - ﷺ - دعوهم فاتجهوا إلى المشرق وصلوا صلاتهم، ثم أتوا النبى - ﷺ - فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان - رضى الله عنه - ذلك من أجل زيكم هذا فانصرفوا يومهم ذلك ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا ودار بينهما حوار طويل مما جاء فيه: لما كلم الحبران النبى - ﷺ - قال لهما: أسلما. قالا: أسلمنا. فقال لهما

---

(١) انظر: * زاد المعاد ج٣ ص ٢١، ٢٨ - ٣٧.

* العلاقات الخارجية لدولة الإسلام فى عهد النبى ﷺ من عام ١ هـ إلى عام ١١ هـ ص ١٧٠ - ١٧١، ص ١٧٧ - ١٧٨ رسالة ماجستير بجامعة الأزهر.

النبى - ﷺ -: كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث :دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت النبى - ﷺ - ولم يجبهما حتى نزل قوله - تعالى -:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٩).

فلما قرأها عليهم النبى - ﷺ - قالوا :ما نعرف ما تقول! فنزلت آية المباهلة:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(آل عمران ٦١).

فقال لهم النبى - ﷺ -:إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم.فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك بما نريد .. فيما دعوتنا إليه فانصرفوا يومهم هذا وخلوا إلى أنفسهم وتصادقوا فيما بينهم، فقال السيد للعاقب :قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل، ولئن لاعنتموه لاستأصلكم، وما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم إلا ألف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم.

فلما أصبح رسول الله - ﷺ - من الغد أقبل ومعه الحسن والحسين وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وقال لهم النبي - ﷺ -: إن أنا دعوت فأمنوا أنتم.

وأقبل عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم على النبي - ﷺ - فقالوا: قد بدا لنا ألا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت، ونصالحك.

فصالحوا رسول الله - ﷺ - على الجزية وكتب لهم عهداً مما جاء فيه « . .ولنجران وحسبها جوار الله، وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم وألا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته . . ».

حتى إذا قضوا كتابهم طلبوا من النبي - ﷺ - أن يبعث معهم والياً يحكم بينهم فبعث النبي - ﷺ - أبا عبيدة بن الجراح[1].

فانصرفوا إلى نجران، وأقام أهل نجران على ما كتب النبي - ﷺ - حتى قبض - ﷺ - ولما تولى أبو بكر الخلافة أنفذ لهم ما كتبه النبي، ولما ولي عمر - رضي الله عنه - أجلاهم عن الجزيرة بعد أن اشترى منهم أموالهم عملاً بحديث روى عن النبي - ﷺ - فيهم خاصة:

---

(١) انظر: * زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨ - ٤٥ لابن القيم المطبعة المصرية ومكتبتها.
*الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٥٨ لابن سعد، العلاقات الخارجية لدولة الإسلام في عهد النبي ﷺ من عام ١هـ إلى ١١ هـ ص ١٧٩ - ١٨٢ رسالة ماجستير بجامعة الأزهر.

عن أبى عبيدة بن الجراح عن النبى - ﷺ - أنه كان آخر ما تكلم به أنه قال: [أخرجوا اليهود من الحجاز وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب][1].

ولقد عايش الإسلام جميع الأديان معايشة طيبة ووجدت فى كنفه كل مودة واحترام، وكانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تقوم على الحوار والتعاون فيما بينهم حتى وإن كانوا قلة مستضعفين فى الأرض وخير شاهد على ما نقول المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة حيث النجاشى الملك العادل الذى يعتنق النصرانية، فلما علمت قريش بهذه الهجرة بعثت فى أثرهم عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وكلاهما يعرف بالذكاء والدهاء ومع ذكائهما ودهائهما كانا يحملان معهما كثيراً من التحف والهدايا إلى النجاشى لكى يسلمهم المسلمين فيرجعوا بهم إلى قريش، فما كان من النجاشى أن يسلمهم المسلمين دون أن يسمع حجتهم وهو الملك العادل الذى لا يظلم عنده أحد، فأرسل فى طلب المسلمين ليسمع حجتهم، فقام جعفر بن أبى طالب ليقول حجة المسلمين. قال جعفر: أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان،

(١) انظر: العلاقات الخارجية لدولة الإسلام ص ١٨٢.

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، ونهانا عن الفواحش ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . .فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك . . فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئا مما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ من عند الله فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى اخضلتِ لحيته ثم قال لهم : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى رسولى قريش قائلاً :انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما . .

فأخذ عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة يشفعان إلى النجاشي بعظماء جنده يسلمهم المسلمين فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، فوشوا إليه أن هؤلاء يقولون فى عيسى قولاً عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون .فأرسل النجاشي إليهم فى ذلك ، فقال جعفر بن أبى طالب :نقول فيه الذى جاءنا به نبينا محمد ـ ﷺ ـ يقول :هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فأخذ النجاشي عوداً وخط به قال :ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود . . اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى من سبكم غرم والسيوم الآمنون فى لسانهم ثم قال للرسولين (عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة) لو أعطيتمونى ديرا من ذهب يقول جبلاً من ذهب

ما أسلمتهم إليكما ثم أمر فردت عليهما هداياهما ورجعا مقبوحين[1] .

ولما بعث النبى - ﷺ - إلى النجاشي بكتاب يدعوه إلى الإسلام وجده قد أسلم وبايع جعفر بن أبي طالب على الإسلام، ولما مات صلى عليه النبى - ﷺ -[2] .

وهذا الذى دار بين النجاشي وجعفر بن أبى طالب يوضح لنا أمرين :

أولهما : يوضح كيف كانت العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى .

وثانيهما : يوضح كيف كان أسلوب الحوار بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرى .

لقد قامت الدعوة إلى الإسلام على الحوار، فقد استقبل النبى - ﷺ - الوفود التى جاءت إليه من كل مكان فى عام يسمى بعام الوفود وهو العام التاسع من الهجرة وكل وفد كان يأتى النبى - ﷺ - كان يفتح معه حوارا مفتوحًا ينتهى بإسلام من جاءوا إليه فى الغالب ثم يرجعون إلى قومهم فيدعونهم إلى الإسلام وقد بعث معهم النبى - ﷺ - من يعلمهم أمور دينهم .

---

(١) انظر : * زاد المعاد ج٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

* دور الأقليات الإسلامية فى العالم ص ٩ - ١٠ أ.د/ عبد المعطى محمد بيومى وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م.

(٢) انظر : زاد المعاد ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

وقد سلك أيضًا - ﷺ - طريقة الحوار في الكتب والرسائل التي بعث بها إلى الملوك في شتى بقاع الأرض خارج الجزيرة العربية وداخلها كما رأينا في بعض منها. وكان أصحاب النبي - ﷺ - الذين يحملون رسائله إلى الملوك كانوا أيضًا على استعداد تام لأي حوار يفتح معهم من قبل هؤلاء الملوك؛ وقد مر علينا حوار حاطب ابن أبي بلتعة مع المقوقس ملك مصر(١).

فالإسلام ما انتشر على ربوع الدنيا كلها إلا بالحوار وسماحة المسلمين مع غيرهم، ولم يكن انتشار الإسلام بالسيف كما يردد أعداء الإسلام، فإنه لا توجد آية واحدة في كتاب الله أو حادثة واحدة في تاريخ صدر الإسلام تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام كان لحمل الناس على اعتناقه، وإنما ينحصر سبب القتال في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية التدين(٢).

فقتال النبي وصحابته - رضوان الله عليهم - كان كله مدافعة عن الحق وأهله وحماية لدعوة الحق ومنع المسلمين من تغلب الظالمين لا لأجل العدوان وسفك الدماء ولذلك كان تقديم الدعوة شرطًا لجواز القتال. فالدعوة تكون بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان، فإذا منعت الدعوة بالقوة بأن هدد الداعي أو قتل فعلينا أن نقاتل لحماية الدعاة ونشر الدعوة لا للإكراه على الدين، وإذا لم يوجد

---

(١) انظر: زاد المعاد ج ٣ ص ٢٦ - ٦٣.

(٢) انظر: العلاقات الخارجية لدولة الإسلام ص ٢٥٣.

من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين فالله ـ تعالى ـ لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ولا لأجل الطمع فى الكسب.

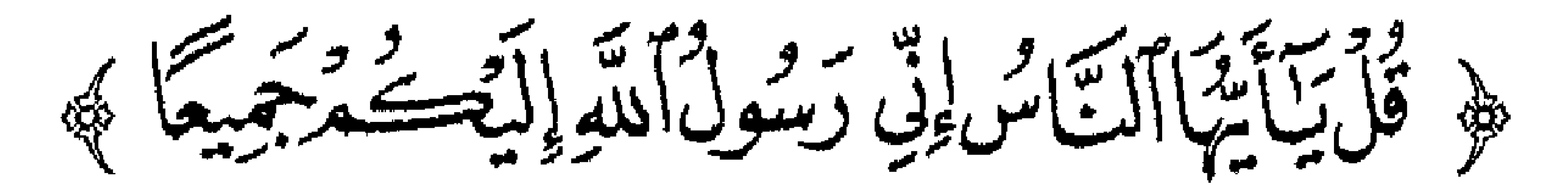
فالمسلمون لم يحاربوا الروم والفرس إلا بعد أن اعتدى الروم على حدود البلاد العربية التى فى حوزة الإسلام ووقفوا فى طريق الدعوة، وكذلك كان الفرس أشد إيذاء منهم للمؤمنين فقد مزقوا كتاب النبى ـ ﷺ ـ ورفضوا دعوته وهددوا رسوله[1].

أليس من حق المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويؤمنوا دعوتهم؟؟!

ثم إن الدعوة الإسلامية التى تحمل منهجاً إصلاحياً شاملاً، أليس من حقها أن تتحرك لتنشر مبادئها فى أى مكان، فإذا تصدى لها من يصر على إعاقة مسارها، أفليس من حقها أن تتصدى قوتها له حتى يفسح لها الطريق؟.

أنسينا أن الدعوة الإسلامية رسالة ليست خاصة بأتباعها وحدهم، بل هى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً؟[2].

وبما أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية بنص القرآن قال ـ تعالى ـ:


﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف ١٥٨).

---

(١) انظر: تفسير المنار ج ٢ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) انظر: العلاقات الخارجية لدولة الإسلام ص ٢٥٤.

وقول الرسول - ﷺ - فيما رواه البخارى فى باب التيمم حديث رقم ٣٣٥ :[أعطيت خمساً لم يعطهم أحد من الأنبياء قبلى .. منها وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

وعالمية الدعوة تفرض ظهورها ووجوب تبليغها ، ومن أجل ذلك فقد استعمل النبى - ﷺ - كل وسيلة لإظهار هذا الدين ونشره داخلياً وخارجياً ومن هذه الوسائل :

(١) أنه - ﷺ - حرص على جمع الناس وإنذارهم وأحياناً يغتنم فرصة جمعهم فينذرهم وأحيانا أخرى يرتحل إليهم ليبلغهم الدعوة كما خرج إلى الطائف وغيرها .

(٢) أنه - ﷺ - حرص على إرسال البعوث الداخلية إلى القبائل المجاورة فى محيط الجزيرة العربية لتبليغ الدعوة .

(٣) أنه - ﷺ - حرص على إرسال البعوث الخارجية إلى خارج الجزيرة العربية إلى كبار الملوك والقياصرة يدعوهم فيها إلى الإسلام .

(٤) كان - ﷺ - لا يجد حرجاً فى أن يصرح باستخدام القوة لإظهار الدين ونشره لا لإلزام الناس به وذلك ضد من يقف فى طريق الدعوة فيمنع وصولها ويعوق انتشارها[١] .

---

(١) انظر : مبدأ حظر استخدام القوة فى العلاقات الدولية (دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام) ص ٩٥ - ١٠٤ رسالة ماجستير بجامعة الأزهر إعداد / محمود السيد حسن داود إشراف / أ.د / عبد العال أحمد عطوة ، أ.د / جعفر عبد السلام.

ومن أجل تبليغ الدعوة ربط القرآن الكريم بين الدعوة واستخدام القوة فقال ـ تعالى ـ:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال ٣٨، ٣٩).

وكذلك ربطت السنة النبوية بين الدعوة وبين استخدام القوة، فقد روى البخارى فى صحيحه عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...]

وليس فى ذلك انتشار للإسلام بالسيف؛ فالقتال الذى يدعو إليه الإسلام ليس لإلزام الناس بالإسلام ولا لإجبارهم عليه، ولكنه لإيصال دعوته وفكرته إلى قلوبهم وعقولهم، وتتحقق لهم الحرية بعد أن تبلغهم دعوته، فيختارونه أو يدعونه[1].

ولو كان السيف كما يقول الشيخ محمد عبده: «..ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به مهدداً به كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة

---

(١) انظر: * مبدأ حظر استخدام القوة فى العلاقات الدولية (دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام) ص ١٠٦ ـ ١٠٩ رسالة ماجستير بجامعة الأزهر.

* الإسلام والرد على منتقديه ص ١١٨ ـ ١١٩ للشيخ محمد عبده مطبعة التوفيق الأدبية ١٣٤٣ هـ.

العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجىء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته مع عبرة تفيض من الأفئدة وفصاحة تتدفق عن الألسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين..

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدينة فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية علا مدة حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الأرض بمدنيتها، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به؟.

سطع الإسلام على الديار التى بلغها فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه»[1].

وإذا كان الإسلام لم ينتشر بالسيف فكيف انتشر؟

انتشر الإسلام بأصالة سيرة رسوله الصادق الأمين، وبفعل خفى يسمى بالهداية الإلهية وهو أمر تعجز النفوس ذاتها عن إدراك معالمها بالصورة الحسية المجردة.

انتشر الإسلام بحسن سيرة الصحابة وبأصالة المنهج الذى ساروا عليه فى اعتناقهم للدعوة المحمدية وتطبيق تعاليمها بالصورة المثلى التى

(١) الإسلام والرد على منتقديه ص ١٢٢ - ١٢٣ للشيخ محمد عبده

جعلت منهم القدوة الصالحة والنموذج الذى احتذى من قبل المسلمين التابعين لهم من بعد انتهاء عهد الرسالة.

انتشر الإسلام بانتشار المثل القويمة لدعوته التى تجمع بين طهارة الباطن والظاهر وبين الإيمان والعمل، وبمبادئ دعوته السامية إلى العدل والمساواة والحرية، انتشر الإسلام بانطباق كل ما جاء به من عقيدة على المنطق والعقل السليم منذ البداية وحتى النهاية[1].

فالدعوة الإسلامية لم تكن تحتاج إلا لوجود جو من الحرية، إذ إن عناصر الإقناع متوفرة فيها بما تقدمه من الأدلة المنطقية، ومن أجل ذلك لم يكن نشر الدعوة الإسلامية بحاجة إلى قوة سلاح إلا عند غياب الحرية، فتتدخل القوة لتوفير الحرية فقط لا غير، وإذا كان الإسلام ليس دين القوة والسيف والقتال فبما نفسر الفتوحات الإسلامية المتعددة؟؟.

جميع الفتوحات الإسلامية قد دارت كل معاركها ضد جيوش القوى الباغية والغازية التى استعمرت الشرق لعدة قرون طويلة وهم الفرس والروم، ولم تحدث معركة واحدة بين جيوش الفتح الإسلامي وبين أهل البلاد التى فتحها المسلمون بل إن أهل هذه البلاد قد ساعدوا المسلمين بالدعم المادى والمعنوى وأحياناً بالقتال ضد الفرس وضد الروم مع بقائهم على دياناتهم المغايرة للإسلام

---

(١) انظر: * كيف انتشر الإسلام ص ١٣ـ ٧٥ تأليف: مؤيد الكيلانى دار الكاتب العربى ـ بيروت.

* الإسلام والرد على منتقديه ص ١١٦ ـ ١٢٤.

والموافقة لديانات الفرس والروم، صنع ذلك أهل العراق ونصارى الشام وأقباط مصر [١].

روى القاضي أبو يوسف في كتابه (الخراج) عن مكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على أعداء المسلمين وعيونا للمسلمين على أعدائهم [٢].

وقال العلامة البلاذري في كتابه (فتوح البلدان): حدثني أبو جعفر الدمشقي قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا على ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد [٣].

---

(١) انظر: * سماحة الإسلام ص ١١ أ.د/ محمد عمارة.
* الإسلام والغرب ص ١٥، ١٦. تأليف/ أرنولد توينبي، تعريب/ د. نبيل صبحي. دار الطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٩م.
(٢) تفسير المنارج ١٠ ص ٢٩٥ نقلاً عن كتاب (الخراج) لأبي يوسف.
(٣) تفسير المنارج ١٠ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ نقلاً عن كتاب: (فتوح البلدان) للبلاذري.

وذكر العلامة الأزدى فى كتابه (فتوح الشام) إقبال الروم على المسلمين ومسير أبى عبيدة من حمص، فلما أراد أبو عبيدة أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة وأمره أن يرد على القوم الذين صالحوهم ما أخذوا منهم من الجزية مقابل الدفاع عنهم، فلما دعا حبيب بن مسلمة القوم وأخذ يرد عليهم ما أخذوه من مال أخذ القوم يقولون: «ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كان هم ما ردوا إلينا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا»[1].

ومن أروع ما جاء فى الشريعة الإسلامية أن الدفاع عن الضعفاء المستذلين فى الشعوب الأخرى واجب علينا معاشر المسلمين، كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا قال - تعالى -:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء ٧٥)[2].

---

(١) تفسير المنارج ١٠ ص ٢٩٦ نقلاً عن كتاب: (فتوح الشام) للأزدى.

(٢) انظر: موقف الإسلام من غير المسلمين ص ٢١ أ.د/عبد الله بن عبد المحسن التركى (الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى) وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م بالقاهرة.

فإنه لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تسكت الأديان السماوية عن صرخات المظلومين، ولا يمكن أن تغفر ظلم الضعفاء بل إن الأديان السماوية كلها تتصور فيها هذه الحقيقة التى ذكرها القرآن عن فرعون وطغيانه فى قومه قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص ٥، ٦).

تلك هى إرادة الله الخالدة، وهى التى طالب ـ سبحانه ـ بها النبيين، وقد نفذها محمد ـ ﷺ ـ على أكمل وجه ودعا أصحابه وأتباعه من بعده أن ينفذوها وأن يعملوا على نصر الضعيف مهما تكن ملته ومهما تكن قوة الظالم، فحث على إغاثة الملهوف ورد ظلم الظالم، فقد ورد عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: [انصر أخاك ظالمًا أو مظلوما. فقال الصحابة: علمنا كيف ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال ـ ﷺ ـ بأن تردوه عن ظلمه]. (صحيح البخارى).

وكان ـ ﷺ ـ يدعو إلى أن تعقد الأحلاف لنصر الضعفاء والانتصاف من الأقوياء وهو الذى مدح حلف الفضول الذى حضره وهو فى العشرين من عمره قائلاً: [لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الإسلام لأجبت].

والإسلام لا ينظر فقط فى حمايته للضعيف إلى الأمم والقبائل التى ضرب عليها الذل بل ينظر إلى وجوب حماية الشعوب التى أرهقها الطغيان وأضعف النخوة فيها الاستبداد، وقد كانت كتبه - ﷺ - للملوك والأمراء التى كتبها يدعوهم فيها إلى الإسلام متضمنة على أن عليهم تبعات فيما يتعلق بالرعايا وأن يطلقوا حرياتهم ليفهموا دينه ويعتنقوه إن أرادوا مختارين كما جاء فى رسالته إلى هرقل: [أن أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم «الإريسيين»].

والإريسيون هم العمال والزراع وغيرهم من الرعايا الذين لا سطوة لهم ولا قوة.

وإن أول حرب وقعت بين الروم والإسلام كانت بسبب الاضطهاد الدينى، فإنه قد أسلم بعض أهل الشام فقتلهم والى الشام من قبل الروم، فكان على المسلمين أن يحموا حرية التدين فى الشام ولا يفهم من هذا أن حماية الحرية الدينية كانت مقصورة على المسلمين كما يفهم ذلك بعض الذين لا يحاولون تمحيص الحقائق وإنما كانت تبسط تلك الحماية أيضًا على غير المسلمين لأن النبى - ﷺ - وأصحابه كما مر علينا من قبل كانوا يتجهون إلى حماية المعانى العالية من غير نظر إلى الأشخاص ولا إلى الأجناس.

فعندما حررت الجيوش الإسلامية البلاد المفتوحة من ظلم الطغاة حررت كذلك ضمائر أهلها من الاضطهاد الدينى الذى عانوا منه

قرونـًا طويلة، فتركوا لأول مرة فى تاريخهم وما يدينون، وأصبحوا جزءًا من رعية الدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وظلوا أغلبية غير مسلمة فى بلادهم لعدة قرون، حتى دخل من دخل منهم فى الإسلام دون إكراه، وبقى من بقى منهم على نصرانيته أو يهوديته أو زرادشتيته فكان من أهداف الفتوحات الإسلامية نصر الضعفاء وتحرير الشعوب من الظلم والطغيان والاضطهاد الدينى[1].

ولذلك سميت الحرب فى شريعتنا قتالاً فى سبيل الله على معنى فى طريق الله الذى يعنى الخير والحق والكرامة، وأما الآخرون فيحاربون فى سبيل الطغيان، ويقاتلون فى طريق الشيطان شراً وبغياً وفساداً قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء ٧٦)[2].

فالإسلام لم يؤمن بنظرية الحرب للحرب كما يحاول بعض المتهجمين المغرضين أن ينعتوه به[3].

---

(١) انظر: * العلاقات الدولية كما نظمها القرآن ص ٩ ـ ١٢ للشيخ محمد أبو زهرة.
* سماحة الإسلام ص ١١ أ.د/ محمد عمارة.

(٢) انظر: موقف الإسلام من غير المسلمين ص ٢١ أ.د/ عبد الله عبد المحسن التركى.

(٣) انظر: الإسلام نظام إنسانى ص ١٩٠ أ.د/ مصطفى الرافعى.

وإذا نظرنا إلى مكانة الناحية الاقتصادية في القتال والفتح الإسلامي فسنجد أن الرغبة في الحصول على المال أو التوسع لمجرد التوسع لم تكن أبداً ذات مكانة لدى المسلمين في جهادهم بأى حال من الأحوال ولم يقل منصف أن المسلمين الأوائل كانوا يحاربون طمعاً في مال أو ثراء، إذ لم يتحقق لهم ذلك طوال سنوات جهادهم، وعلى العكس من ذلك تماماً فقد كان النبى وأصحابه يفقدون أموالهم، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء.

فقد توفى رسول الله - ﷺ - ودرعه مرهونة عند يهودى في ثلاثين صاعاً من شعير.

وكان أبو بكر غنياً قبل الإسلام ثم أنفق ماله كله في سبيل الله، ولما ولى الخلافة حمل تجارته على كتفه واتجه للسوق يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده.

وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر يعيش في بيت صغير ويرتدى لباس الفقراء.

وفقد عثمان بن عفان ماله مع أنه كان من أغنى تجار العرب.

وكان على بن أبى طالب يقدم ما عنده من الطعام إلى المحتاجين مع أنه يكون في حاجة إليه[1].

---

(١) انظر: العلاقات الخارجية لدول الإسلام ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

فالحرب أو الجهاد فى الإسلام لم يكن لجمع المال والثروات ولا لفتح البلدان لمجرد التوسع وتكوين الممالك والإمبراطوريات وإذلال العباد ولا للثأر والانتقام وإنما كان لإعلان كلمة الله وإنقاذ البشرية من براثن الظلم والطغيان، عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - عن القتال فى سبيل الله - عز وجل - فقال: [الرجل يقاتل غضباً ويقاتل حمية قال: فرفع رأسه إليه وما رفع رأسه إليه إلا أنه كان قائماً فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله] رواه مسلم في صحيحه (باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار).

ومن قاتل فى الإسلام لغير ذلك فهو فى النار، فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول[إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ...] - (باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار).

فالحرب فى الإسلام حرب الأهداف السامية والمبادئ الأخلاقية العالية والقوانين الإنسانية، وذلك لأنها تتقيد بقيود الوفاء بالعهود والمواثيق، وحرمة الغدر والخيانة، واحترام الإنسانية وتكريم الجماعة الإنسانية، والتمسك بالرحمة والعدالة فى القتال والغزو،

والمعاملة بالمثل في السيرة الحربية، والتزام الفضيلة والتقوى في العلاقات الدولية سلماً وحرباً[1].

ولقد شهد بذلك علماء التاريخ والاجتماع من الإفرنج المنصفين للفتوحات الإسلامية، فقال غوستاف لوبون الفرنسي صاحب كتاب (حضارة العرب) ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب[2].

وقال بيجي رودريك :قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانية ورأفة.

ويقول السير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) :لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي.

ويقول مارسبيل بوزار في كتابه :«إنسانية الإسلام» : منذ بدأ الفتح الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة.

---

(١) انظر:
* موقف الإسلام من غير المسلمين ص ٢١ أ.د/ عبد الله عبد المحسن التركي.
* الجهاد والنصر ص ٧ ـ ٢١ أ.د عبد الحليم محمود سلسلة البحوث الإسلامية لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٤م.
* من روائع حضارتنا ص ٩٧ ـ ١١٥ أ.د/ مصطفى السباعي.

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٠٣.

ويقول ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة) : كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيراً لها فى المسيحية فى هذه الأيام(١) .

وإذا عدنا إلى تاريخ الإسلام وإلى ثقافته لمعرفة مدى تطبيق هذه المبادئ وتفعيل هذه القيم فى حياة المسلمين فى صدر الإسلام، وجدنا أن تحكيم العقل كان سائدا فى التعايش الحضارى بين المسلمين وغيرهم، وأن تواصل الحوار بينهم فى المعتقد والفكر ظل يوجه العلاقات بينهم وبين الأمم والشعوب التى حاوروها، وبسطوا سلطانهم عليها، فقد استطاع المسلمون أن يؤسسوا حضارة استظل بفيئها النصارى واليهود والمجوس وسواهم، فاندمجوا فى مؤسساتها وتعاونوا مع المسلمين فى تسيير دواليبها، واستطاعوا أن يجعلوا من التعاون وقبول الاختلاف فى العقيدة والثقافة قواعد للاستقرار الاجتماعى.

ومن الظواهر الدالة على ذلك بقاء أهل الديانات المختلفة فى المجتمعات المفتوحة كالنصارى والمجوس على عقائدهم واستمرار معابدهم، ولو كان المسلمون خلال حكمهم قد استأصلوا شأفة

---

(١) انظر: موقف الإسلام من غير المسلمين ص ٢١ ـ ٢٥ أ.د/ عبد الله عبد المحسن التركى.
* من روائع حضارتنا ص ٩١ ـ ٩٤.
* الإسلام دين العقل والحوار ص ٢٦ أ.د/ محمد الكتانى (عضو أكاديمية المملكة المغربية) بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م.

هؤلاء وقضوا على عقائدهم من باب التعصب والإقصاء، لما كان قد بقى لهم اليوم أى أثر فى بلدانهم[1].

فالتعايش السلمي والتعاون الإيجابى ركيزة من ركائز العلاقات الدولية فى الإسلام[2].

ونستطيع من خلال ما سبق أن نقول: إن الحوار مع الآخر هو منهج وأسلوب القرآن الكريم، كما كان هو منهج وأسلوب النبى - ﷺ - فى دعوة الآخرين إلى الإسلام، وكان أيضا منهج وأسلوب خلفائه الراشدين وصحابته والتابعين من بعده.

أى أن الحضارة الإسلامية ما قامت إلا على الحوار وقبول الآخر.

وإذا كان سلفنا الصالح قد أقاموا حضارتهم على الحوار مع الآخر، فإننا قد بتنا أكثر حاجة إلى الحوار منهم؛ حيث إن الحوار اليوم أصبح أكثر اتساعا ومدى من الأمس وذلك بفعل حركة التواصل واختراق الحدود والفواصل الزمنية والمكانية، وأصبحنا نعيش فى عالم مفتوح على الآخر، وأصبح العالم كله يشبه القرية الصغيرة، وهذا مما يساعدنا فى نشر قيمنا وأفكارنا وفى الكشف عن إنسانية وعالمية الحضارة الإسلامية وفى التعريف بالإسلام الذى زادت الانطباعات الخاطئة عنه، وكثرت إثارة الشبهات عنه لتضليل الناس وصرفهم عن هذا الدين.

---

(١) انظر: الإسلام دين العقل والحوار ص ١٨ - ٢٧ أ.د / محمد الكتانى.

(٢) انظر: الإسلام فى العلاقات الدولية ص ٢٠ أ.د / محمد الشحات الجندى وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية عام ٢٠٠٢م.

فعالم اليوم رغم ما يحدث فيه من تحولات عميقة يمر بها إلا أنه يعد أرضاً خصبة للحوار، وعالمية الإسلام تشفع لنا فى ذلك الحوار وستساعدنا فى تخطى عقبات كثيرة قد تواجهنا؛ حيث إن فكرة العالمية التى بشر بها الإسلام ودعا إليها هى أقرب إلى عقول الناس ونفوسهم، وذلك لأنها تبحث عن معان وقيم سامية للحياة متجاوزة بذلك القيم المادية التى سيطرت على مجتمعات العالم الحاضر.

المبحث الثانى

التبادل الثقافى والحضارى بين المسلمين والآخر

لقد أثبتت حضارتنا عبر تاريخها الطويل أنها حضارة حوار وتواصل وتداخل مع الحضارات الأخرى بالعلم والمعرفة، فقد أخذت منها وأعطتها.

ولقد استطاع الإسلام بعالميته أن يؤسس قنوات تفاعل إيجابى مع مجتمعات متنوعة وذلك دون أن يفرض نفسه عليها قسراً أو عنوة، وإنما كان ذلك قائماً على الحوار والمجادلة بالتى هى أحسن.

ولقد جعل الإسلام الآخر جزءاً أصيلاً من الأمة الإسلامية، له ما لها وعليه ما عليها، ففتح بذلك أمام هذا(الآخر) باب الإسهام فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، وذلك بعد أن استوعب الإسلام كل المواريث الحضارية السابقة للإغريق والرومان وغيرهم، فأحياها الإسلام بعد أن كانت قد اندثرت وترجم المسلمون علومها وفنونها، فدخلت تلك المواريث فى النسيج الجديد للحضارة الإسلامية الجديدة، فكان الإحياء الإسلامى لعلوم وفنون وفلسفات مدارس «الإسكندرية» و«أنطاكية» و«جنديسابور» وغيرها الإنقاذ الإسلامى للتراث الحضارى الإنسانى من القهر والضياع[1].

---

(١) انظر: سماحة الإسلام ص ١١.

فاليونان كما يقول أبو الحسن الندوى: « . . .أمة موهوبة، من أنجب أمم العالم وأذكاها استعداداً للعلم والأدب، ومن أخصبها أذهاناً وعقولاً، وقد مثلت فى العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعباقرة تزهو بآثارهم مكتبات العالم»[1].

وقد خلف اليونان الروم وفاقوهم فى القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية، ولكنهم لم يلحقوا بهم بعد فى العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التى كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة بما فيها الروم الذين كانوا لا يزالون فى دورهم العسكرى، فخضعوا لهم علمياً وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم[2].

فقد دخل ما خلفته حضارة الإغريق والروم فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة وذلك لأن الحضارة الإسلامية مركبة من ثلاثة أنواع من الحضارة:

النوع الأول: حضارة التاريخ أو حضارة الدول: وهى تلك الحضارة التى قدمتها دولة ما من الدول لرفع شأن الإنسان وخدمته فى الميادين الحضارية المختلفة كالميدان الاقتصادى وغيره، ويرتبط الحديث عن هذا النوع من الحضارة بالحديث عن تاريخ الدولة التى قدمت تلك الحضارة.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٤٤ بقلم أبو الحسن على حسنى الندوى طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية بالكويت.

(٢) انظر السابق ص٢٣٠ و ما بعدها.

النوع الثانى : الحضارة الإسلامية الأصيلة : وهى تلك الحضارة التى جاء بها الإسلام، ولم تكن معروفة من قبل لخدمة المجتمع البشرى ويشمل هذا ما جاء به الإسلام من مبادئ وتعاليم فى مجال العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع . . . إلخ .

النوع الثالث :الحضارة المقتبسة :وهى تلك الحضارة التى اقتبسها المسلمون من غيرهم ممن سبقهم من الإغريق والروم(١) .

فلقد حفظت الحضارة الإسلامية تراث الإغريق من الضياع، وذلك عندما ترجمته ونقلته من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية .

وقد أولى خلفاء المسلمين ترجمة علوم اليونان اهتمامًا بالغًا، وأول من اهتم بذلك هو الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، الذى أمر بترجمة كتب الطب والكيمياء اليونانية التى بمدرسة الإسكندرية بمصر ، ويأتى بعد خالد بن يزيد فى الاهتمام بترجمة كتب اليونان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذى أمر الطبيب البصرى (ماسرجويه) بترجمة كتاب (أهرن القس) فى الطب .

وفى عصر الدولة العباسية نشطت حركة الترجمة عن اليونان أكثر منها ما كان فى عصر الدولة الأموية من حيث المادة المترجمة ونوعها ومن حيث الدعم المادى والمعنوى للنقلة من القائمين على

---

(١) انظر : من مظاهر الحضارة الإسلامية فى مجال العلوم التجريبية ص ٧ د/ عبد البارى محمد الطاهر طبعة مكتبة رياض الصالحين بالفيوم ١٩٩٤م.

هذا الأمر ففي عصر المنصور ترجمت كتب: «كليلة ودمنة» و«السندهند» وهو مذهب في علم النجوم، وكتاب «أرسطوطاليس» و «المجسطي» لبطليموس و«كتاب إقليدس» وغيرها من الكتب التي ترجمت من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية إلى اللغة العربية وذلك في علوم النجوم والحساب والطب والفلسفة والأدب.

وفي عصر الرشيد الذي اشتهر بحبه للعلوم والآداب والفنون وللعلماء القائمين بها، أرسل الرشيد الرسل إلى بلاد الروم؛ ليطلبوا من ملكهم ما عندهم من كتب اليونان؛ لينظر المسلمون فيها فيأخذوا ما يحبون ويعيدوا الباقي إليهم، وقد رضي ملك الروم بذلك بعد استشارة بطارقته.

وفي عصر المأمون شهدت الترجمة نشاطًا غير عادي وبلغت في عصره أقصى درجات التفنن في نقل تراث الأمم الأخرى إلى العربية.

وقد دخل بغداد في عصره مترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، فيهم من النصارى والمجوس والصابئة والبراهمة والروم، وقد ترجم هؤلاء تراثًا كبيرًا من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، وكثر بسبب ذلك في بغداد عاصمة الخلافة الوراقون، وباعة الكتب، وانتشرت مجالس الأدب والمناظرة، وانشغل الناس بالبحث والمطالعة وشهد عصر المأمون نهضة علمية رفيعة المستوى.

ولقد ظلت حركة الترجمة مزدهرة حتى أواخر القرن الرابع الهجرى حيث ضعف خلفاء بنى العباس وأصبحت الأمور فى يد الموالى من الترك والفرس فأصاب ذلك حركة الترجمة بحالة من الفتور والضعف[1] .

وقد ساعد على ازدهار الترجمة عدة عوامل أهمها :

(١) اهتمام الخلفاء بالترجمة ورعايتهم لها كما مر علينا .

(٢) كثرة العطايا التى كانت تمنح للمترجمين .

(٣) ظهور صناعة الورق التى اقتبسها المسلمون من أهل مدينة « سمرقند » بعد فتحها .

(٤) طبيعة اللغة العربية التى تمتاز بالمرونة وقدرتها على إبداع مترادفات ومصطلحات جديدة تساعد فى نقل مختلف العلوم .

(٥) حث الإسلام على طلب العلم والإقبال عليه .

وبما أن الحضارات أخذ وعطاء ، وأى حضارة لا تفيد من غيرها ولا تعطى تعد حضارة جامدة ميتة ، تندثر بمرور الزمن ، ولأن الحضارة الإسلامية كانت حضارة بعث وإحياء ، فقد أحيت موات حضارات قديمة لليونان وغيرهم ، وذلك عن طريق الكتب التى ترجمها المسلمون عن الإغريق وغيرهم ، ولكن المسلمين شكلوا المادة العلمية الجديدة التى حصلوا عليها من تراث الأمم السابقة

(١) انظر : من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ١٥ - ١٧ . د. عبد البارى محمد الطاهر .

تشكيلاً جديداً، وابتكروا طريقة البحث العلمى الصحيح القائم على التجربة والملاحظة واستطاعوا بذلك أن يثبتوا صحة الصحيح من هذه العلوم فيقبلونه وخطأ ما كان مبنياً منها على الخطأ فيتركونه أو يعدلونه[1].

وقد ترتب على حركة الترجمة لعلوم الأمم السابقة جهود عظيمة لعلماء المسلمين فى هذه العلوم أيضاً.

فقد كان للمسلمين جهود فى مجال الطب، فبعد أن ترجم علماء المسلمين كتب أبقراط وجالينوس فى الطب لم يكتفوا بتلك الترجمات، وإنما صنفوا كتباً تعتمد على ملاحظاتهم وتجاربهم الشخصية، فضلاً عن المعطيات التى حصلوا عليها من خلال الكتب المترجمة، وربما نقدوا آراء جالينوس وغيره بعد تجارب دقيقة، وأثبتوا ذلك فى كتبهم التى صارت فيما بعد من أهم المواد الدراسية التى اعتمدت عليها أوربا فى نهضتها الحديثة ومن هؤلاء العلماء وكتبهم:

- أبو الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى وكتابه: فردوس الحكمة وهو يعد أول من أعلن أن مرض السل ينتقل بالعدوى وأنه لا يصيب الرئتين فحسب بل يصيب الأعضاء الأخرى كذلك.

- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (ت ٣٢٠ هـ) وكتابه: المنصورى وهو له كتب أخرى فى الطب أهمها: الحاوى فى الطب، والجامع، والطب الملوكى، وكتاب الجدرى والحصبة.

---

(١) انظر: من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ١٨ - ٢٢.

وترجع أهمية كتابه (المنصورى) ـ نسبةً إلى الأمير السامانى منصور ابن إسماعيل ـ إلى أنه يحوى علوماً شتى ويتعرض لعلاج أمراض عدة وقد جمع به كل ما يخص صناعة الطب.

ـ أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا وكتابه القانون.

وكتاب القانون لابن سينا موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بمسائل الطب فى تلك الفترة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة، وكانت أول ترجمة له إلى اللاتينية واتخذت منه جامعات أوربا مرجعاً أساسيا لتعليم الطب لا فى أوربا وحدها بل وفى إنجلترا واسكتلندا أيضاً.

ـ وقد تميز ابن سينا فى مجال الطب بعدة أمور منها:

(١) يعد ابن سينا أول طبيب يقوم بحقن الإبر تحت الجلد وأول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية.

(٢) هو أول من أجاد وصف الجهاز التنفسى والأمراض العصبية.

(٣) تميز فى الجراحة المتصلة بالأورام الخبيثة.

(٤) أول من كشف العضلية الموجودة فى الإنسان المسماة بالإنكلستوما والمرض الناشيء عنها «الرهقان».

ـ ابن النفيس وكتابه: شرح تشريح القانون.

وفيه ابتكر ابن النفيس نظرية الدورة الدموية.

وقد ترجمت أغلب مؤلفات ابن النفيس إلى اللاتينية واعتمدت كأساس فى تدريس مادة الطب فى جامعات أوربا لفترة طويلة من الزمن[1].

---

(١) انظر: من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ٤٠ ـ ٥٤.

وكما كان للمسلمين جهود فى مجال الطب، كان لهم جهود أيضًا فى مجال الكيمياء ومن هؤلاء العلماء وإنجازاتهم:

-جابر بن حيان (١٩٧ هـ) ويلقب بشيخ الكيميائيين. ومن إنجازاته فى هذا المجال:

١ -تحضير حامض النيتريك المعروف بزيت الزاج.

٢ -تحضير ماء الذهب أو الماء الملكى بإضافة حامض النيتريك إلى حامض الكلوريدريك.

٣ -تحضير الصودا الكاوية وكربونات الصوديوم والبوتاسيوم وكربونات الرصاص.

٤ -دراسة السموم.

٥ -إيجاد أصباغ مستخلصة من النباتات لصبغ الجلود.

٦ -أول من استعمل الموازين الحساسة والأوزان الدقيقة فى تجاربه كالقيراط والدانق، والدرهم والمثقال والأوقية والرطل.

-أبو بكر الرازى (٣٢٠ هـ) ومن أهم إنجازاته:

(١) اعتبر التجربة فى الكيمياء أساسًا علميًا لابد منه.

(٢) أول من استخدم الفحم الحيوانى فى قصر الألوان.

(٣) أول من ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم.

(٤) حضر الجبس من حرق كبريتات الكالسيوم المائية .

ـ أبو منصور الموفق بن على الهراوى الفارسى عاش فى القرن الرابع الهجرى ومن أهم إنجازاته :

(١) يعد أبو منصور الموفق أول من استطاع أن يفرق بوضوح بين كبريتات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم التى أطلق عليها اسم قلى أو قلوى .

(٢) يعد أبو منصور الموفق مؤسس الكيمياء الصناعية التى لها أكبر مكانة مرموقة فى المناهج الجديدة فى جامعات العالم .

ـ الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ومن أهم إنجازاته أنه أبطل نظرية تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة مثل الذهب والفضة واهتم بدراسات الأعشاب .

ـ عز الدين أيدمر على الجلدكى من علماء القرن الثامن الهجرى ومن أهم إنجازاته :

(١) ابتكار قانون النسب الثابتة .

(٢) ابتكار استخدام الكمامات الواقية فى معامل الكيمياء .

(٣) أول من فصل الذهب عن الفضة بواسطة حمض النيتريك .

ويمكن تلخيص جهود المسلمين فى مجال الكيمياء فى نقاط ثلاث :

(١) المحافظة على التراث العلمى فى الكيمياء لكل من اليونان والهنود والفرس وذلك بترجمته إلى العربية .

(٢) تأسيس الطريقة العلمية الحديثة فى التفكير والبحث بالاستناد على المشاهدة والتجربة .

(٣) استخدام وسائل جديدة في إجراء التجارب العلمية لم يسبقهم إليها غيرهم [١] .

ومن جهود المسلمين في مجال الرياضيات :

نبغ في الرياضيات عدد من علماء المسلمين من أمثال :

ـ محمد بن موسى الخوارزمى (٢٣٥ هـ) ومن إنجازاته :

(١) طور علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب ولذلك نسب إليه ذلك العلم .

(٢) ابتكر علم حساب «اللوغاريتمات» .

(٣) يعد كتابه «الجبر والمقابلة» من أهم الكتب الأصول فى علم الجبر .

ـ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٤٤٠ هـ) ومن أهم إنجازاته :

(١) يعد من الذين وضعوا الأسس الأولى لعلم حساب المثلثات .

(٢) يعد أول من فكر فى نظرية الجاذبية .

(٣) كان يستخدم التجربة والقياس فى بحوثه .

---

(١) انظر : من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ٥٩ ـ ٧٠ .

ـ ثابت بن قرة (ت ٢٨٨ هـ) ومن إنجازاته :

(١) ابتكر علم حساب التفاضل والتكامل .

(٢) ابتكر معادلة الأعداد المتحابة والمربع السحرى .

ـ الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) ومن أهم إنجازاته : برهان القاعدة الخامسة المشهورة من قواعد إقليدس التى تقول :إذا كان هناك خطان ورسم خط قاطع لهما ، وكانت الزاويتان المتقابلتان من الداخل وفى جهة واحدة من القاطع تساوى ١٨٠ درجة ، فإن الخطين متوازيان .

ـ أبو بكر محمد بن الحسن الكرخى (ت ٤٢١ هـ) ومن أشهر ابتكاراته : نظرية مجموع الأعداد الطبيعية التى ادعاها الغرب لبيير فرمان (ت ١٦٦٥م)

ـ نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢ هـ) وهو الذى يرجع إليه الفضل فى تعريف الأعداد الصم ، وهو الذى يرجع إليه الفضل فى الفصل بين حساب المثلثات وعلم الفلك ، وهو الذى ابتكر علم الهندسة الفوقية[١] .

ومن جهود المسلمين فى مجال الفيزياء :

نبغ فى مجال الفيزياء علماء بارزون من المسلمين من أمثال :

ـ الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ) الذى أثبت عكس نظرية إقليدس وبطليموس فى علم البصريات التى كانت تقول : إن العين

(١) من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ٧٣ ـ ٨٢ .

ترسل أشعتها على الأشياء فتظهر ، فأثبت ابن الهيثم خطأ ذلك ؛ فالشعاع لا يصدر من العين إلى الأجسام ولكن الأجسام هى التى ترسل أشعتها إلى العين، فابن الهيثم يعد بحق رائد علم البصريات فقد اهتم بوصف عين الإنسان وصفا دقيقا ، ورسمها بوضوح تام، أخذه عنه الطب الغربى.

كما اهتم أيضًا بالضوء وأثبت بالتجربة انعكاس الضوء وانكساره.

ومن أهم اكتشافاته : نظرية العدسات المكبرة، واختلاف وزن الجسم باختلاف كثافة الهواء الجوى، وإثبات وزن الهواء الجوى.

-ابن سينا والبيرونى، هذان العالمان المسلمان قد سبقا نيوتن فى اكتشافهما نظرية الجاذبية الأرضية وإليهما يرجع الفضل فى تحديد قانون الحركة الأول.

-هبة الله بن ملكا البغدادى : سبق هذا الرجل نيوتن فى قانونه الثالث القائل : «إن لكل فعل رد فعل مساوى له في المقدار ومضاد له فى الاتجاه».

-أبو الفتح عبد الرحمن الخازنى (ت ٥٥٠ هـ) سبق الخازنى تورشيلى فى الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه، وبيّن أن قاعدة أرشميدس لا تسرى فقط على السوائل ولكنها تسرى أيضا على الغازات وهذا ما ساعد فيما بعد على اختراع البارومتر.

واخترع الخازنى ميزانًا لوزن الأجسام فى الهواء والماء له خمس كفات تتحرك إحداهما على ذراع مدرج.

ومن نظريات الخازنى التى لا تزال تدرس فى المدارس والجامعات إلى يومنا هذا فى علم الديناميكا (الحركية) : نظرية الميل والانحدار، ونظرية الاندفاع[1].

ومن جهود المسلمين فى مجال الفلك :

فإنه قد برز فى مجال علم الفلك علماء مسلمون مثل :

البيرونى الذى توصل من خلال رصده لكسوف الشمس وخسوف القمر :إلى أن الشمس أكبر من الأرض، وأكبر من القمر.

والبتانى (ت ٣١٧ هـ) الذى وضع الجداول الفلكية واستخدم فيها علم حساب المثلثات لأول مرة ودرس العلاقة بين السماء والأرض وشرح كتب بطليموس الفلكية وخالفه فى كثير من آرائه، وأول من توصل إلى تصحيح طول السنة الشمسية وقدرها (٣٦٥) يومًا و (٥) ساعات و(٤٦) دقيقة و(٣٢) ثانية بينما كان بطليموس قد حددها بـ(٣٦٥) يومًا و(٥٥) دقيقة و(١٢) ثانية والقيمة الحديثة التى توصل إليها العلماء المعاصرون بالتلسكوب لا تفرق كثيراً عن قيمة البتانى فهى عندهم (٣٦٥) يومًا و(٥) ساعات و(٤٨) دقيقة و(٤٦) ثانية.

---

(١) انظر : من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ٨٥ ـ ٩٠ .

وأبو الحسن الصوفى (ت ٣٧٦ هـ) الذى صحح المقاييس الفلكية القديمة وعرف بدقة مواضع النجوم ومجموعاتها ورصدها نجما نجمًا، هذا فضلاً عن نقله لنظريات علم الفلك عن المجسطى لبطليموس.

وأبو الوفاء اليوزجانى الذى اهتدى إلى معادلة مثلثية توضح مواضع القمر بالنسبة للأرض سماها (معادلة السرعة).

وعلى بن عبد الرحمن بن يونس الصدفى (ت٣٩٩ هـ) الذى توصل إلى أن حركة القمر وسرعته فى تزايد، وإليه يرجع الفضل فى اختراع الرقاص (البندول) الذى استعمل فى الساعات الدقاقة والذى تم نسبته إلى جاليليو (١٦٤٢ م) وهذا خطأ محض.

وأبو الحسن علاء الدين بن إبراهيم الأنصارى المعروف بابن الشاطر (ت ٧٧٧ هـ) فقد اخترع ابن الشاطر آلة لضبط الوقت سماها «البسيط» وضعت فى إحدى مآذن المسجد الأموى بدمشق، وباستخدام التجربة استطاع أن يخطىء نظرية بطليموس القائلة بأن الأرض مركز الكون وأن الأجرام السماوية تدرو حول الأرض كل ٢٤ ساعة، وأكد ابن الشاطر أن الأرض والكواكب المتحيرة تدور حول الشمس بانتظام والقمر يدور حول الأرض[١].

هكذا كما رأينا لقدِ ترجم المسلمون جميع العلوم والفنون من الأمم السابقة من اليونان والرومان والفرس والهنود وغيرهم، ودرسوها

(١) انظر: من مظاهر الحضارة الإسلامية ص ٩٣ - ٩٩.

وأضافوا إليها بعد أن شرحوها وبينوا الصواب من الخطأ فيها، وفق منهجهم القائم عى المشاهدة والتجربة، فكان نتيجة ذلك أنهم برعوا في علم الفلك والجبر والمقابلة والحساب والميكانيكا والآلات والموسيقى والجغرافيا والطب والهندسة .. إلخ. فأفادوا واستفادوا[1].

وكما فتح الإسلام الأبواب أمام الآخر للإسهام في بناء الحضارة الإسلامية، ترك هذا الآخر يدير معه أمور الدولة صاحبة الحضارة ودواوينها وذلك مما جعل المستشرق الألماني آدم متز يقول: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[2].

وهذه الشهادة من المستشرق الألماني لم تأت من فراغ، فقد كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموى والعباسى محل الرعاية لدى الخلفاء، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمناً طويلاً، فكان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص، وكان «سرجون» كاتبه، وعين مروان «اثناسيوس» في بعض مناصب الحكومة في مصر وظل يترقى حتى وصل إلى مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة.

---

(١) انظر: * فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية (الكتاب كله) للعلامة الهندى / شبلى النعمانى ترجمة د / عبد العزيز عزت عبد الجليل، سلسلة البحوث الإسلامية لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٨١ م.
* من مظاهر الحضارة الإسلامية في مجال العلوم التجريبية (الكتاب كله) د / عبد البارى محمد الطاهر.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ط ص ١٠٥ لآدم متز ترجمة د./ محمد عبد الهادى أبو ريده طبعة بيروت ١٩٦٧ م.

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء العباسيين جرجيس بن بختيشوع الذى كان مقربًا من الخليفة المنصور، وسلمويه بن بنان النصرانى طبيب المعتصم، وبختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل.

وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء غير المسلمين لدى الخلفاء والأمراء بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم، وليس أدل على ذلك من الأخطل الشاعر المشهور الذى كان يدخل على الخليفة عبد الملك ابن مروان دون إذن وهو مرتدٍ عباءة من الحرير وعليه تعويذة وقد تدلى الصليب من عنقه والخمر تقطر من لحيته وذلك كله دون أن يتعرض له الخليفة بسوء.

وكان إبراهيم بن هلال الصابى أى من الصابئة قد بلغ أرفع المناصب فى الدولة وتقلد الأعمال الجليلة فى تقدمه للشعراء، وكانت بينه وبين زعماء الأدب والعلم من المسلمين صلات حسنة حتى إنه لما مات رثاه الشريف الرضى شيخ الهاشميين العلويين بقصائد خالدة منها قصيدته الدالية.

وكانت الحلقات العلمية فى حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية .قال خلف بن المثنى :لقد شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم فى الدنيا علمًا ونباهة وهم:

الخليل بن أحمد صاحب النحو وهو سني، والحميرى الشاعر وهو شيعي، وصالح بن عبد القدوس وهو ثنوى، وسفيان بن مجاشع وهو خارجي، وبشار بن برد وهو شعوبي، وحماد عجرد وهو شعوبي، وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودي، وابن نظير المتكلم وهو نصراني، وعمر ابن أخت المؤيد وهو مجوسي، وابن سينا الحرانى الشاعر وهو صابئي، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم، ومن الغريب أن مثل هذه المظاهر من الود ظلت ولم تتغير حتى في حالة الحرب الصليبية، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع[1].

ولقد زاحم الفرس العرب في الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الأموال وولاية الأقاليم ومنادمة الخلفاء ثم غلبوهم عليها[2].

ولقد شهد كثير من الغربيين المنصفين للحضارة الإسلامية في هذا الشأن، فهذا السير مارك سايس يقول في وصف الإمبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد: «وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة».

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا ص ٨٦ ـ ٩٠.

(٢) انظر: التيارات المذهبية ص ٧٢ د/أحمد محمد الحوفي الدار القومية للطباعة والنشر بمصر.

ويقول ترنون: «لم يكن للدين دخل فى معاملة الشعراء والمغنيين».

ويقول ليفى بروتنسال فى كتابه أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر: «إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً، والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود، وقد كانوا يتصرفون للدولة فى الأعمال الإدارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوربا الغربية»[1].

الحضارة الإسلامية حضارة حية تؤثر فى غيرها وفى نفس الوقت تتأثر بالغير أيضاً، فهى تأخذ وتعطى، فهى ليست حضارة جامدة، فإن الأمم كانت ومازالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والخيرات، بل إن المعرفة والثقافة تنتقل بسلطانها الذاتى من شعب إلى شعب كما تنتقل السحائب والرياح لا تصدها عوائق ولا تردها حواجز.

فقد تأثر العرب بالفرس فى الأدب واللغة والموسيقى والغناء والتاريخ وفى الإدارة والسياسة، وفى العادات والتقاليد وفى العلوم والتآليف وتأثر الفرس بالعرب فى نفس هذه المجالات أيضاً[2].

وفضل الإسلام على الغرب لا ينسى بأى حال من الأحوال لأنه هو الذى أخرج أوربا والغرب كله من الظلام الدامس الذى كانوا

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا ص ٩١ - ٩٢.

(٢) انظر التيارات المذهبية (الكتاب كله) د/ أحمد محمد الحوفى.

يعيشون فيه، فالذى كان معروفًا عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام سفك الدماء وإشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعقل.

فماذا حمل الإسلام إلى أوربا وما هى المدنية التى زحف عليهم بها؟

«زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعًا بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون»[1].

فمن المعلوم لدى الجميع أن الغرب كان مليئًا بالاستبداد وتتنازعه الحروب والفقر ويقسم الناس إلى طبقات ولم يكن هناك حقوق إلا حقوق الدوق والملك والنبلاء، وغيرهم من البشر لا حقوق لهم على الإطلاق.

وعندما اتجه الغرب إلى غزو الشرق بحثًا عن المال والذهب تنبه إلى العلوم التى كانت عند العرب، فعندما غزا نابليون مصر قام

---

(١) الإسلام والرد على منتقديه ص ٢٣ للشيخ محمد عبده.

بترجمة المنهج الإسلامى من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية ليأخذ منها قانونًا إلى فرنسا يختلف اختلافًا جذريًا عما كان سائدًا فى أوربا وسماه القانون المدنى الفرنسي وهو مأخوذ من الشريعة الإسلامية وأضاف إليه نابليون موضوع الفائدة على المال فقط.

كما أخذ الإنجليز من المسلمين موضوع القياس وصاغوا طريقة اتباعهم للتطبيق القانونى على شاكلة القياس فى الشريعة الإسلامية، وبالإضافة إلى ذلك فإن نابليون قد أمر بترجمة كافة العلوم الأخرى من طب وهندسة وفلسفة ورياضيات ... إلخ التى وصل إليها العلماء المسلمون من أمثال أبو بكر الرازى والحسن بن الهيثم والإدريسى وغيرهم، وسطعت شمس الحضارة الإسلامية بفضل هذه العلوم على الغرب[1].

لقد أدرك الغربيون إفلاس حضارتهم من الناحيتين الروحية والأخلاقية، فأخذ كثير منهم يتجه نحو الشرق عله يجد فى دياناته ما يسد فراغه الروحى ويرد إليه إنسانيته[2].

ولقد حدثت بين الإسلام والغرب فى الماضى تفاعلات متعاقبة فى ظروف مختلفة وأدوار متبادلة لقد حصل اللقاء الأول عندما كان المجتمع الغربى فى دور طفولته بينما كان الإسلام فى عصره البطولى.

---

(١) انظر: الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف ص ٧٠٦ أ.د/أحمد بدر الدين حسون.

(٢) من روائع حضارتنا ص ١٠.

والنتائج التى جناها الغرب على الصعيدين الاقتصادى والثقافى من احتلال الصليبيين لقسم من العالم الإسلامى، كانت أهم بكثير من الكسب الإقليمى وتوسيع رقعة الأرض.

لقد أدخل الإسلام فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحى وقد كانت حياة لاتينية صدئة، وفي بعض حقوق النشاط الإنسانى كهندسة البناء مثلاً تغلغل التأثير الإسلامى فى العالم المسيحى كله طيلة قرونه الوسطى[1].

ولا شك فى أن الحضارة الغربية نشأت من اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية عن طريق المعاهد العربية فى الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى، وكانت الفلسفة اليونانية مما يعنى به مفكرو الإسلام وفلاسفته ، فنقل طلاب الغرب عن العرب فلسفة اليونان وكتبهم وأكبوا على دراستها[2].

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها، وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر والاعتماد على العقل لا تدعهم يشكون فى أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها.

---

(١) انظر : الإسلام والغرب والمستقبل ص٣٢ ـ ٣٤ تأليف أرنولد توينبى تعريب د/ نبيل صبحى دار العربية للطباعة والنشر ط ١ بيروت ١٩٦٩.

(٢) انظر : من روائع حضارتنا ص ٤ ـ ٥.

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى وتولوه بالزيادة والتمحيص ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مديناً للإسلام من هذه الناحية .

وشهد علماء الغرب بذلك منهم : العالم لوبون جوستاف صاحب كتاب : حضارة العرب . فمما جاء فيه :

« ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن » .

ويقول : « ثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتهم » .

ويقول : « وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة » .

ويقول : « وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون » [1] .

وفى ولاية منيسوتا / فى ٢٤ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٢ امتدحت مسئولة رفيعة المستوى فى صناعة قطاع التكنولوجيا الأمريكية الحضارة الإسلامية التى قالت إن إسهاماتها كانت سبباً رئيسياً فى تقدم تكنولوجيا المعلومات والكمبيوتر فى العصر الحديث .

---

(١) انظر : من معالم الإسلام ص ٥٧ ـ ٦٠ تأليف / محمد فريد وجدى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م . .

ولأهمية هذا الحديث سننقله كاملاً :

تقول كاريل فيورينا كبيرة المسئولين التنفيذيين بشركة «هيوبارت باركاد» التكنولوجية المعروفة فى حديث لها بولاية منيسوتا :

« لقد كانت هناك فى وقت من الأوقات حضارة كانت هى الأعظم فى العالم ، فقد تمكنت هذه الحضارة من تأسيس دولة عظمى على امتداد قارة بكاملها ، ترامت أطرافها من محيط إلى محيط ، ومن مناطق شمالية إلى مناطق استوائية وصحارى . وضمن سلطانها كان يعيش مئات الملايين من الناس تباينت معتقداتهم وأصولهم الأثنية .

وكانت من بين لغاتها لغة أصبحت اللغة العالمية لغالبية الكون ، لغة شكلت جسراً بين شعوب مائة قطر ، وكانت جيوشها مكونة من قوميات كثيرة ، وأتاحت حمايتها العسكرية لها أن تنعم بقدر من السلم والرخاء اللذين لم تعرفهما قط من قبل ، وامتدنطاق تجارة هذه الحضارة من أمريكا اللاتينية إلى الصين ، وفى كل مكان بينهما .

وكان الحافز لهذه الحضارة أكثر من أى شىء آخر هو الاختراعات ، فقد صمم معماريوها المبانى التى تحدت قانون الجاذبية أما رياضيوها فقد ابتدعوا الجبر والحساب مما ساعد العالم على تصميم أجهزة الحاسوب واستنباط التشفير ، كما بدأ أطباؤها فى تحليل الجسم البشرى ، وعثروا على علاجات جديدة للأمراض .

ورصد فلكيوها السماوات وأطلقوا الأسماء على الكثير من النجوم ومهدوا الطريق أمام السفر فى الفضاء واستكشافه.

وألف كتابها آلاف الروايات ، روايات عن الشجاعة والحب والسحر ، ووضع شعراؤها أبيات عن العشق فى الوقت الذى كان من سبقهم يخشون التفكير بأمور من هذا القبيل.

وفى الوقت الذى كانت فيه أمم أخرى تخشى الأفكار ازدهرت هذه الحضارة على هذه الأفكار وأبقتها حية، وحين هدد الرقباء بمحو المعرفة النابعة من الحضارات السالفة أبقت هذه الحضارة المعرفة حية ونقلتها إلى حضارات أخرى.

وفى حين تتشاطر حضارات الغرب المعاصرة الكثير من هذه الخصائص ، فإن الحضارة التى أتحدث عنها كانت حضارة العالم الإسلامى من عام ٨٠٠م إلى ١٦٠٠م وشملت الإمبراطورية العثمانية وبلاطات بغداد ودمشق والقاهرة ، وحكاماً متنورين مثل (السلطان العثمانى) سليمان العظيم.

ورغم أننا نجهل فى كثير من الأحيان ما ندين به لتلك الحضارة الأخرى، فإن ما وهبته لنا هو جزء لا يستهان به من تراثنا، فصناعة التكنولوجيا لما كانت لتوجد لولا إسهامات الرياضيين العرب، وقد تحدى الشعراء الفلاسفة الصوفيون مثل ابن الرومى مفاهيمنا للذات والحقيقة ، أما سلاطنة مثل سليمان العظيم فقد أسهموا فى مفاهيمنا الخاصة بالتسامح والقيادة المدنية.

ولعله يمكننا أن نتعلم درساً من مثاله، فقد كانت القيادة الإسلامية تقوم على مبدأ الجدارة ، وليست الوراثة، وكانت زعامة سخرت جميع قدرات شعبها البالغ التنوع الذى ضم التقاليد المسيحية والإسلامية واليهودية.

وهذا النوع من الزعامة المتنورة زعامة غذت الثقافة والقدرة على الاستمرار والتنوع والشجاعة ، هذه الزعامة قادت إلى ٨٠٠ عام من الاختراعات والرخاء.

وفى حقب مظلمة وخطيرة مثل هذه علينا أن نؤكد التزامنا ببناء مجتمعات ومؤسسات تتطلع إلى هذا النوع من العظمة، وعلينا أكثر من أى وقت آخر فى الماضى أن نركز على أهمية القيادة ، بل على الأفعال القيادية الجريئة ، وتحديداً على الأعمال الشخصية القيادية»[١].

ونستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا فى ميادين خمسة رئيسية:

(١) فى ميدان العقيدة والدين: فقد كان لمبادئ الحضارة الإسلامية أثر كبير فى حركات الإصلاح الدينية التى قامت فى أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة، فقد كانت

---

(١) من كتاب : هذا هو الإسلام فى أمريكا وهو عبارة عن مجموعة مقالات صادرة عن المراكز الإسلامية بأمريكا طبع فى ٢٠٠٢ ، وبعث به إلى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) بالقاهرة ٢٠٠٢م.

الشعوب يومئذ ترسف فى أغلال من الخصام المذهبى والخضوع لسلطان رجال الدين فى أفكارهم وآرائهم وأموالهم وأبدانهم ، فمن الطبيعى وقد وصلت فتوحات الإسلام فى الشرق والغرب إلى ما وصلت إليه أن تتأثر الأمم المجاورة له بمبادئه فى العقيدة قبل كل شىء وهذا ما حدث فعلاً ، إذ قام فى القرن السابع الميلادى فى الغربيين من ينكر عبادة الصور ، ثم قام من ينكر الوساطة بين الله وعباده . وكانت الجامعات الأوربية فى ذلك الوقت لاتزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين التى ترجمت منذ عهد بعيد إلى اللاتينية .

(٢) فى ميدان الفلسفة والعلوم من طب ورياضيات وكيمياء وجغرافيا وفلك : فلقد أفاقت أوربا على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرسون هذه العلوم فى مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها . ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغدت كتب علمائنا تدرس فى الجامعات الغربية ، فقد تُرجم كتاب (القانون) فى الطب لابن سينا فى القرن الثانى عشر ، كما تُرجم كتاب (الحاوى) للرازى فى نهاية القرن الثالث عشر ، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب فى الجامعات الأوربية فى القرن السادس عشر .

أما كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا ، ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأننا كنا فى القرون الوسطى أساتذة أوربا لمدة لا تقل عن ستمائة سنة .

(٣) فى ميدان الأدب واللغة : فقد تأثر الغربيون وخاصة الشعراء الأسبان بالأدب العربى تأثراً كثيراً فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربى فى الأندلس على الخصوص .

(٤) فى ميدان التشريع : فقد نقل الغربيون الأحكام الفقهية والتشريعية إلى لغاتهم ، فترجم نابليون أشهر الكتب الفقهية للإمام مالك إلى الفرنسية و (كتاب الخليل) الذى كان نواة القانون المدنى الفرنسى وقد جاء متشابهاً إلى حد كبير مع أحكام الفقه المالكى .

(٥) فى مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة : العالم القديم والوسيط كان ينكر على الشعب حقه ويجعل العلاقة بين الحاكم والمحكوم هى صلة العبد بسيده ، أما الإسلام فقد حرر الناس من ذلك فكان لذلك أثر فى تحرر العالم وإنقاذ الشعوب [١] .

ومن أهم خصائص حضارتنا التى تميزت بها عن باقى الحضارات:

١- إنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة فى العقيدة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥). وهذه الوحدة فى العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التى جاءت بها ، فهناك الوحدة فى الرسالة والوحدة فى التشريع والوحدة فى الهدف والوحدة فى الكيان الإنسانى العام والوحدة فى وسائل المعيشة .

---

(١) انظر : من روائع حضارتنا : ص ٣٧ - ٤٧ .

٢ ـ إنها إنسانية النزعة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣).

٣ ـ إنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول فى كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها.

٤ ـ إنها تؤمن بالعلم وتخاطب العقل والقلب معًا.

٥ ـ تتميز بالتسامح الدينى العجيب الذى لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين [1].

بقى لنا مسألة لابد أن نتعرض لها ما دُمنا نتحدث عن الحضارة والتبادل الحضارى، وهى مسألة (صِدام الحضارات) هل هو حقيقة أم وهم ؟

لم يكن لهذا الموضوع أصل حتى خرج علينا صموئيل هنتنجسون بكتابه : (صِدام الحضارات) وقد أحدث هذا الكتاب ضجة وقت خروجه ثم طوى فى دائرة النسيان ونسيه أكثر الناس حتى إذا كانت أحداث ١١ سبتمبر ، فعادت أطروحة صِدام الحضارات للظهور من جديد بصورة أقوى مما كانت عليه فى بدايتها.

---

(١) انظر : ● من روائع حضارتنا ص ٢٨ ـ ٣٢ .
● من مظاهر الحضارة الإسلامية : ص ٩ ـ ١١ .

وصدام الحضارات عند أهله يعنى أنه ليس هناك حوار أو تفاهم أو تعاون أو تبادل حضارى بين الحضارات وإنما هناك صدام أو تربص أو خصام أو صراع حضارى بين الحضارات.

ولكى نبين خطأ هذا الاعتقاد نحتاج إلى بيان موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى وهذا ما سبق أن بيناه فى الصفحات السابقة ونلقى عليه بعض الضوء الآن أيضاً :

فمن المعلوم أن نسيج الحضارة الإسلامية إنما هو نسيج متكامل من خلال الالتزام بتعاليم الدين الإسلامى بدءا من عقائده إلى عباداته فسائر شرائعه وأحكامه.

والسؤال الآن : كيف انتشر الإسلام فى الأقطار والمجتمعات المترامية والتى أعقبها على أثر ذلك ظهور ما يسمى بالحضارة الإسلامية، وهل كان هذا الانتشار تبعاً لسياسة القسر والإرغام؟

الذى يجيب عن هذا هو بيان معنى التكليف الذى خاطب الله به عباده عن طريق الرسل والأنبياء.

فمن الثابت أن التكاليف التى خاطب الله بها عباده لا تتأتى الاستجابة بها إلا فى مناخ الحرية التامة التى يملكها الإنسان والتى تستشعره بأنه متمكن من أن يفعل أو لا يفعل ما طلب منه.

فعنصر الحرية لابد أن يصاحب دائماً واقع التكليف وإدراك هذه الحقيقة ذو أهمية كبرى.

إذن فمهمة الداعي إلى الله أن يبصر الناس بهوياتهم ، وبأنهم مكلفون من قبل الله بأداء واجبات ووظائف محددة في نطاق الاعتقاد أولاً والسلوك ثانيًا وأن يتركهم بعد ذلك أحرارًا في اتخاذ القرار الذي يشاءون ، ومن هنا نستطيع أن ندرك معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة ٢٥٦). فالله ـ تعالى ـ قد حدد وظيفة رسوله في أمر الدعوة التي بعث بها بالوقوف عند حدود الإبلاغ والتذكير وإقامة الحجج وإزالة الشبهات دون أن يتجاوز شيئًا من ذلك إلى قسر أو إكراه وينجلي ذلك في نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾

(الغاشية ٢١ ، ٢٢).

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾

(الشورى ٤٨).

وإذا تقرر هذا فلنتذكر أن الجهاد القتالي ليس إلا فرعًا عن واجب الدعوة إلى الله أي أن الجهاد لم يكن يومًا ما سببًا إلى إكراه الناس على الإسلام ، فهو شُرِّع لدرء المخاطر التي تحيق بالمسلمين وبالدعوة الإسلامية ولم يُشرَّع لإرغام الناس على الإسلام.

ولو كان الجهاد لإرغام الناس على الإسلام لما دعا الله عز وجل المسلمين إلى إجارة وتأمين المشرك الراغب في معرفة شيء عن

الإسلام من كل سوء وهو في ساحة القتال وتبليغه مأمنه سواء أسلم أم لم يسلم فيقول ـ تعالى ـ:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٦).

يقول الدكتور محمد سعيد البوطي: « ولقد استقصيت وقائع الجهاد القتالي الذي التحم فيه المسلمون مع غيرهم منذ صدر الإسلام إلى أواسط العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ، فلم أجد إلا أحد دافعين حمل المسلمين عليه:

درء لبغي واقع أو قضاء على خطة لبغي متوقع » [١].

أما الإسلام فقد شهد تاريخه الغابر، كما يشهد واقعه اليوم أنه إنما سلك ويسلك سبيله إلى العقول قناعة ويقيناً ثم إلى القلوب تعلقاً وحباً وذلك مما جعل مسيو جابرييل هانوتو الفرنسي يقول عن الإسلام: « ... فهو الدين الوحيد الذي أمكن اعتناقه الناس زمراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه» [٢].

---

(١) صدام الحضارات : أهو افتراء على التاريخ أم مشروع لإيقاد حرب ثالثة ص ٤ أ.د / محمد سعيد رمضان البوطي وهو بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م.

(٢) الإسلام و الرد على منتقديه ص ٤ .

إن الحضارة الإسلامية هى الثمرة التى لابد أن تحملها شجرة الإسلام حيثما وجدت وأينما استنبتت ذلك لأن الحضارة ما هى إلا ثمرة للتفاعل الذى يتم بين الإنسان والكون والحياة، وهل الإسلام فى مضمونه إلا المنهج الأمثل الذى يرسمه القرآن للتفاعل الذى يجب أن يتم ما بين الإنسان والكون والحياة؟ فكيف يتصور أن يصادم نفسه أو أن تصادم الحضارة الإسلامية ذاتها؟

فالمسلمون القائمون بأمر الدعوة الإسلامية والتعريف بالإسلام لم يرغموا أحداً على عقيدة أو دين وإنما وقفوا موقف الدفاع عن حرية الكلمة وقدسية الحوار، فكانت عاقبة ذلك أن انتشر الإسلام وأشرقت حضارته لا من خلال قهر وصدام وإنما من خلال التلاقى للمعارف فى ساحة الحرية والحوار.

ولنا فى قصة انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية فى بقاع آسيا وأوربا خير شاهد على هذه الحقيقة [1].

فهذا أرنولد توينبى يقول: « ففى القرن السابع الميلادى حرر العرب المسلمون سلسلة من الدول الشرقية من سطوة إغريقية رومانية مسيحية من سوريا شرقًا إلى أسبانيا غربًا عبر شمال أفريقيا، وكانت هذه الدول تحت حكم يونانى أو رومانى مدة ألف عام تقريبًا وذلك منذ غزا الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية

---

(١) انظر: صدامَ الحضارات: أهو افتراء على التاريخ أم مشروع لإيقاد حرب ثالثة ص ٤ ـ ٥ ـ أ.د/ محمد سعيد رمضان البوطى.

وهزم الرومان مملكة قرطاجة بعد ذلك وبالتحديد ما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر استمر الفتح الإسلامى متدرجاً فشمل تقريباً جميع بلاد الهند وانتشر الإسلام بصورة سلمية فى مناطق أبعد وأوسع في إندونيسيا والصين شرقاً وفى أفريقيا الاستوائية شرقاً وجنوباً ، كذلك روسيا ... » [1].

إن منطق التاريخ وحتمية الجغرافيا يفرضان الإقرار بضرورة التعايش بين الحضارات والثقافات وإن اختلفت فى الرؤى والتصورات بل إن مصير الإنسانية مرهون بالاعتراف والتسليم بهذه الحقيقة التى عليها يتشكل الحوار العالمى الحضارى بين الشعوب والثقافات والديانات.

« ومن روعة الإسلام أنه يريد لهذه الحضارات أن تتفاعل وتتساند فى كل ما هو مشترك إنسانى جامع موحد ، وهو بذلك يرفض قصر المركزية الحضارية على شعب ما ونفيها عن بقية الشعوب ، ليقطع بذلك السبيل عن فتن الصراع والصدام ، بل يجب أن تكون الحضارة الإنسانية قدراً مشاعاً ، تتغذى من عطاءات الشعوب لتكون نهراً عظيماً تصب فيه كل الروافد بلا انقطاع » [2].

وهذا ما كانت ولاتزال عليه الحضارة الإسلامية « إذن فإن كلمة الصدام ... أو التربص .. أو الخصام .. كانت ولاتزال غريبة عن

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل ص ١٥ - ١٦ .

(٢) الإسلام دعوة أصيلة فى السماحة والتعايش السلمى ص ١٧ للشيخ / كمال جعيط (مفتى تونس) .

قاموس الحضارة الإسلامية ، إنها كانت ولاتزال إنسانية في جذورها الراسخة وأغصانها الصاعدة وثمارها العامة للجميع »[1] .

كان هذا هو ردنا على مسألة صدام الحضارات ، وقد اتضح لنا الآن أن صدام الحضارات وهم وليس حقيقة وهو افتراء على التاريخ وبالأحرى يجدر به أن يكون مشروعًا لإعلان حرب جديدة على الإسلام والمسلمين .

وقد اتضح لنا من كل ما سبق أن حضارتنا هي حضارة تقارب وتفاهم وتبادل وتعاون وتكامل وحوار مع جميع الحضارات الأخرى سواء السابقة لها أو اللاحقة .

---

(١) صدام الحضارات : أهو افتراء على التاريخ أم مشروع لإيقاد حرب ثالثة ص ٥ .

فهرس المراجع والمصادر
مرتبة أبجديًا حسب أسماء مؤلفيها

-أبو الحسن على حسنى الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين "طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية بالكويت" .

-أ.د / أحمد بدر الدين حسون : الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م" .

-أحمد عبد الوهاب عبد الرحمن فتيح : العلاقات الخارجية لدولة الإسلام فى عهد النبى ﷺ عام ١ هـ إلى عام ١١هـ . "رسالة ماجستير بجامعة الأزهر - كلية اللغة العربية - ١٩٩١م"

-أ.د / أحمد عمر هاشم : الإسلام وموقفه من غير المسلمين "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م" .

-أ.د / أحمد محمد الحوفى : التيارات المذهبية "الدار القومية للطباعة والنشر بمصر" .

-آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى "ترجمة د / عبد الهادى أبو ريدة طبعة بيروت ١٩٦٧" .

- أرنولد توينبى : الإسلام والغرب والمستقبل "تعريب / د . / نبيل صبحى دار العربية للطباعة والنشر ط بيروت ١٩٦٩م" .

- الأستاذ / إسحق موسى الحسيني : أهل الذمة فى الفتاوى المقدسية . بحث ألقي في العيد الألفى للأزهر - الندوة العلمية العالمية مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٣م .

- ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد "المطبعة المصرية ومكتبتها" .

- ابن جرير الطبرى : تاريخ الكبرى "طبعة دار المعارف بمصر" .

- ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى "المطبعة البهية المصرية لصاحبها عبد الرحمن محمد عيدان الجامع الأزهر" .

- أ . د / جابر بن على السعدى : البعد الحضارى للعلاقات الدولية فى الإسلام "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م" .

- الشيخ / السيد رشيد رضا : تفسير المنار "الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت" .

- السيد طلبة السيد : علاقة المسلم بغير المسلم فى العقود "رسالة دكتوراة بجامعة الأزهر كلية الشريعة والقانون بالقاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م" .

- شبلي النعماني : فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية "ترجمة د/ عبد العزيز عزت عبد الجليل سلسلة البحوث الإسلامية لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٨١م" .

- عبد الأمير قبلان : الإسلام يدعو إلى الحوار والتعارف "بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م" .

- عبد الباري محمد الطاهر : من مظاهر الحضارة الإسلامية في مجال العلوم التجريبية "مكتبة رياض الصالحين بالفيوم ١٩٩٤م" .

- أ.د/ عبد الحليم محمود : الجهاد والنصر "سلسلة البحوث الإسلامية لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٤م"

- أ.د/ عبد الغفار هلال : الإسلام وموقفه من غير المسلمين "وهو بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام)١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م" .

- أ.د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي : موقف الإسلام من غير المسلمين "وهو بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م" .

- أ.د/ عبد المعطي محمد بيومي : دور الأقليات الإسلامية في العالم "وهو بحث ألقي في المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م" .

ـ على سيد أحمد السيد : حماية الحقوق اليهودية والإسلام (دراسة مقارنة) "رسالة ماجستير بجامعة الأزهر / كلية أصول الدين بالمنوفية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م" .

ـ الشيخ كمال جعيط : (الإسلام دعوة أصيلة فى السماحة والتعايش السلمى) وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية (هذا هو الإسلام) ٢٠٠٢م .

ـ مؤيد الكيلانى : كيف انتشر الإسلام "دار الكاتب العربى – بيروت" .

ـ الشيخ / محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية كما نظمها القرآن "وهو بحث ألقى فى جامعة أم درمان الإسلامية بالندوة العلمية لأسبوع القرآن" .

ـ أ.د / محمد الشحات الجندى : الإسلام والعلاقات الدولية "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م" .

ـ محمد بن إسماعيل بن كثير : البداية والنهاية "دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ" ،

ـ أ.د / محمد حميد الله الحيدر : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة" طبعة القاهرة ١٩٥٦م" .

ـأ.د / محمد سعيد رمضان البوطى : صدام الحضارات : أهو افتراء على التاريخ أم مشروع لإيقاد حرب ثالثة "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م" .

ـالإمام محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه مطبعة التوفيق الأدبية ١٣٤٣هـ.

ـأ.د / محمد عمارة : سماحة الإسلام "وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م" .

ـمحمد فريد وجدى : من معالم الإسلام "طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م" .

ـمحمود السيد حسن داود : مبدأ حظر استخدام القوة فى العلاقات الدولية (دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام) رسالة ماجستير بجامعة الأزهر .

ـمحمود الكتانى : الإسلام دين العقل والحوار «وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م» .

ـمحمود عبد الغنى عاشور : (الإسلام دين التحاور والتعارف) «وهو بحث ألقى فى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية ٢٠٠٢م» .

ـالإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووى الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩هـ المطبعة المصرية بالأزهر .

ـ المراكز الإسلامية بأمريكا : هذا هو الإسلام فى أمريكا «مجموعة مقالات صادرة عن المراكز الإسلامية بأمريكا فى ٢٠٠٢م، بعث بها إلى المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة (هذا هو الإسلام) فى ٢٠٠٢م».

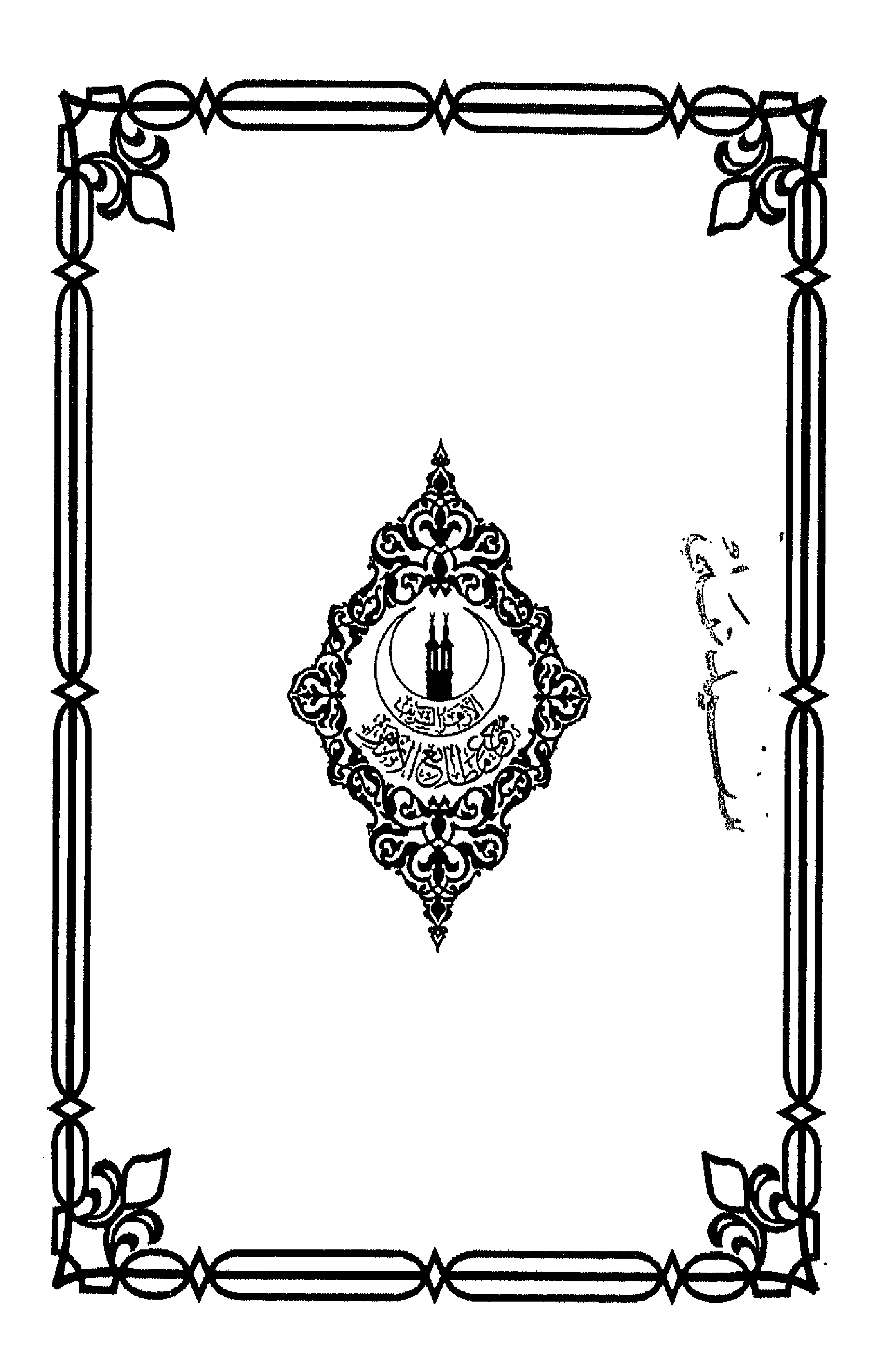
ـ أ.د / مصطفى الرافعى : الإسلام نظام إنسانى "الناشر / مكتبة الحياة بيروت" .

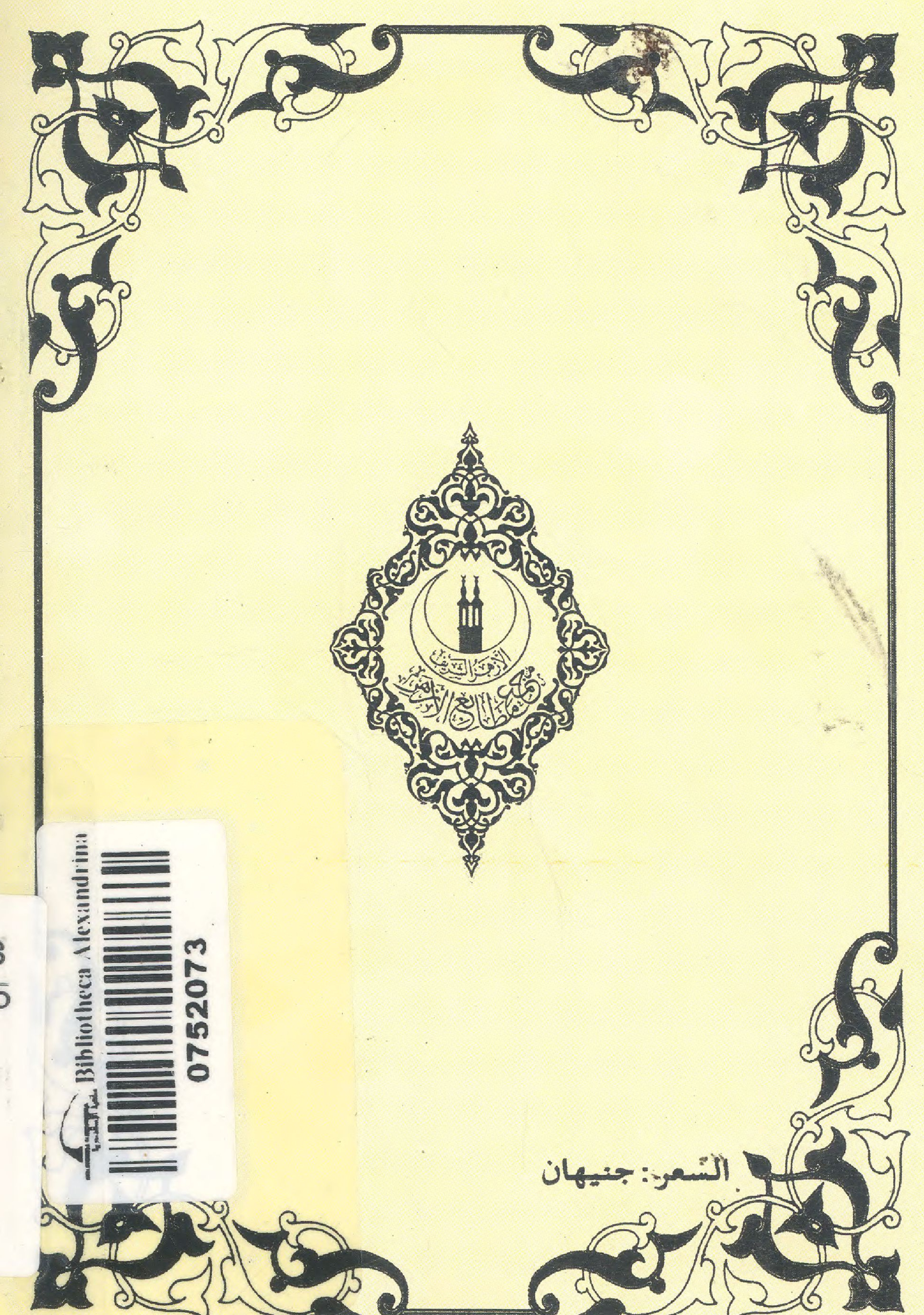
ـ أ.د / مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا "الناشر دار السلام بدمشق" .

ـ المعهد العالمى للفكر الإسلامى بباريس : مجلة إسلامية المعرفة ـ عدد خاص بقضايا الحرية ـ السنة الثامنة ـ العددان ٣١ ، ٣٢ شتاء ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ربيع ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

فهرس الموضوعات

المسلمون والآخر ... حوار وتفاهم وتبادل حضارى





Bibliotheca Alexandrina
0752073
28
915